EEE

Bibliotheca Alexandrina
0217421

من الشرق والغرب

إنسان السدّ العالي

صنع الله إبراهيم • كمال القلش • رءوف مسعد

الله الله .. هيلا هيلا ..
ياواقف تحت الشمس عشان الحفلة تصير كيلة
الله الله .. هيلا هوبه
يا طابع ايدك فوق بوابة الشمس الخضرا أماني ومحبة
اعمللى من الحبة قبة
واعملى من جيل الراحة مليون عيلة
الله الله .. ياحليلة .
الجبل الشق وطق وباقفل باب همى
واخواتى مع صحابى خيلانى جيرانى عمامى ولاد عمى
بيعللوا الصدر الاسوانلى
ويرشوا تحته الفليلة
قول للدكتور
اللى بيغز الابرة ف لحم دراعى من غير مايسمى
انا حاسس ان دراع السد ..
محتاج لشوية من دمى .

من قصيدة « أغنية للسـد »

للشاعر عبد الرحمن الأبنودى

أصعب كتاب فى العالم

انه حلم قديم .. حلم الكتابة عن السد ..

فكيف يمكن لابن مصر الإشتراكية ان يغمس قلمه فى المداد دون ان يدشنه اولا بهرم العصر ؟

ذلك ان الهرم الجديد ، الذى يرتفع عاليا ،يوما بعد يوم ، هناك عند اسوان ، قد غدا رمزا على معركة افريقيا ضد الاستعمار ومن اجل البقاء ، ورمزا على التعاون المخلص بين الشعوب وعلى الصداقة الأممية ورمزا لغد الوفرة الذى تتطلع اليه الملايين ..

والاحلام لاتتحقق بسهولة ..

وهكذا كان لابد ان تمضى سنوات قبل أن تتاح لنا الفرصة اخيرا ..

ولكننا احسسنا هناك فوق السد ، بعد فترة من الوقت ، انه من المستحيل أن نكتب كتابا عن السد فكل ماسنكتبه بعد يوم او يومين او على الاكثر شهر سيصبح قديما ، وسيصبح الكتاب تاريخا ماضيا .. لان السد يتغير كل يوم ..

نزور الانفاق مثلا . ونعيش فيها يوما او يومين .. ونكتب ثم نعود بعد عشرة أيام لنجد كل ما كتبناه غير موجود .

كنا سعداء بانفاق التفتيش لأننـا وجدنا شيئا في بدايته ، لحقنا الخراســـانة وهى تصب ، وعندما عدنا اليها فى نهاية الشهور الثلاثة وجدناها قد اختفت غطوها بالطمى ، ودكتها البلدوزرات .

وقال لنا احد المهندسين .. انتم تكتبون اليوم عن الموجودين ، عن الذين ترونهم ، ولكنكم لم تروا اناسا كان لهم دور جبار ورائع وتركوا السد .. الذين بدءوا البدايات الشـــاقة اغلبهم ذهب .. وعندمـــا ستاتون فى عام ١٩٦٩ مثلا ، ربما لن تجدوا اغلب من رأيتموهم هذا العام ، سترون اناسا جددا ، فمـــاذا ستفعلون ؟ هل ستضعون كتابا كل شهرين ..؟

شعرنا وكاننا نواجه نهرا جاريا متدفقا ، لايمكن تركيز النظر على موجة واحدة من موجاته ووصـفها لنعبر بها عن النهر .. والناس تتغير ، تولد وتعيش . وتعمل هنا وهناك وتموت ، ومن المستحيل علينا ان نحصر كل الموجات او ان نوقف جريان النهر لنكتب .

فى الشهر الأول رحبوا بنا ، وكانوا يعاملوننـا كفاكهة نادرة ظهرت فى غير أوانها .. فالزوار الذين يريدون الكتابة يذهبون عادة فى الشـــتاء ليستمتعوا برحلة طيبة الى شمس اســوان وكتاراكت ، ولكننا ذهبنا في الصيف ، وكان أحد الأسباب أن « صنع الله » صمم على مشاهدة آخـر فيضان سـيصل مصر .. وصمم على أن يرى العمل فى ذروة الاجهـاد والحرارة « والا فكيف سنكتب ! » .

وهكذا ذهبنا فى يونيو ، وعشـنا على الشاطىء الملتهب ، واسوان تغلى . وجرى «صنع‌الله» مع النيل فى مركب الى الشمال . الى « ابو سمبل » وظل يلهث هنا وهناك بحجمه النحيف الذى يكاد يلوى وحده ..

وفى الشهر الثانى اشـتدت موجة الحـرارة ،

للدرجة أن بدأ الناس يتساقطون .. وفكرنا لحظة أن نجمع ملابسنا ونحزم حقائبنا ونعود فى وقت مناسب أكثر .. ونحن نفكر ونتردد ، هكذا سقط رءوف مريضا بنفس الاعراض المميتة ، الحرارة المرتفعة والاحتقان ونزيان الجسم . ونقل الى المستشفى ، وكانت المستشفى مجرد مرحلة شكلية ، فبعدها بساعات يحين الاجل . وواجهنا كارثة حقيقية : ماذا نفعل ؟ وسهرنا طول الليل بجواره . وامتد الامر لاكثر من ليلة . ولم نتحدث لا فى سفر ولا فى اقامة ، فنحن نرتب شحن جثة ، ونفكر فى والدته المريضة وأخيه واهله كيف سنواجههم وكأننا نحن الذين قتلناه . واجتاز رءوف المحنة رحمة بنا ، وكان طبيعيا ان نلحق انفسنا ونرحل ، وكانت الكلمةالنهائية والحاسمة على اية حال لرءوف نفسه ، وقال اننا لم نر بعد أجزاء من السد يجب أن نراها والا فكيف نكتب عن السد ؟

وواصلنا ..

وفى الشهر الثالث قال لنا العمال والمهندسون انتم أصبحتم تعرفون السد أكثر منا ، مثلا أنا الذى اعمل فى المحجر أو الانفاق ، لا أرى غير الجزء الذى اعمل فيه ، ولا ارى الصورة كلها ، لاارى الموقع كله ابدا ، بل كل مرة افاجأ وانا فى طريقى الى عملى بتغيرات لم الحظ ابدا بدايتها .. ولكنكم انتم رايتم كل الأماكن .. كل موقع من المواقع .. نريد ان نرى ماستكتبونه ونقرؤه ، لنعرف كل شىء عن السد .. !

أليست مهمة صعبة ان نكتب ويقرأ لنا حتى الذين يعيشون السد نفسه .. أليس كتابا صعبا ورهيبا ..؟!

وعندما عدنا واجهنا أصعب مشكلة ، مئات القصاصات معنا ، مئات من الصفحات ، ماالذىنكتبه وما الذى نتركه ..؟ وكل ما معنا تغير .. والناس ..

كيف نختار .. وعلى أى أساس .. وهل نحن حقا ـ بينى وبينك ـ نعرف شيئا يستحق الكتابة عن السد ؟

لقدغرفنا بايدينا ملء قبضة من الناس وفرزناهم وكتبنا عنهم وعن حياتهم .. ولكن .. هل هؤلاء فقط الذين ستجدهم هنا فى هذا الكتاب هم رجال السد ؟ مستحيل طبعا ، هل هؤلاء هم العصب الرئيسى للسد، قطعا نحن لانعرف .. وانما نحن نقدم رمزا ما للعمل .. عدد من الناس ليسوا هم ابرزهم ولا احسنهم ولا اعظمهم . فقط الذين تصادف وقابلناهم ، الذين استوقفناهم واستوقفونا .

مشكلة اخرى .. كيف يكتب ثلاثة عملا واحدا؟ فهى اول تجربة لنا أن نشترك معا ونتفرج معا ونعيش معا ونكتب معا . ولقد كانت تجربة جميلة احيانا وكانت فى احيان اخرى محنة لايمكن ان يتصورها احد ! احد عاقل .

***

وأخيرا اعترف واقول ان هذا الكتاب ليس كتابا عن السد العالى .. لان كتابة كتاب عن السد العالى فى رأيى أمر مستحيل ، وليس صورة للسد العالى ، وانما هو بالضبط صفحات تصادف أن كتبناها بين يونيو ١٩٦٥ ، سبتمبر سنة ١٩٦٥ .

ونحن ننتهى من هذا الكتاب ، نشعر برغم المتاعب التى صادفناها ، وعرقلتنا طويلا ، وبرغم الجهود التى بذلناها احيانا وضاعت هباء .. نشعر أننا قد عشنا أروع أيام حياتنا ، أروع تجاربنا بين يونيو وسبتمبر ١٩٦٥ ، واننا نحلم من جديد ان نعيش ولو اياما قليلة لنرى السد فى عام آخر .. ولنغتسل فى رحابه ونعيش على ضفاف معركته ، معركة الانسان المصرى البسيط الذى يبنى ولايتهاون .. وينحت الصخر ، ويهزم الجبل ، ويهد الدنيا . ويبنى عصرا جديدا لمصر جديدة ، تحت لواء زعامة رائعة وعبقرية ..

كمال القاشى

السوق..

للوهلة الأولى يبدو لك انك فى مكان مألوف ·· مثل بقيـة المدن الصغيرة المتناثرة على طول الشريط الاخضر ، فى الجنوب وفى الشمال ·· فهاهو الحنطور خارج المحطة يعمل بهمة مزودا ببوق جلدى كبير · ومستلمح عينك زحام المدن الصغيرة · بل وبوادر شبكة من الحوارى الضـــيقة الى اليسار مباشرة تطل عليها مبان قديمة متلاصقة · ولكنك ستفتح عينيك جيدا عندما تتحول الى اليمين لترى وجه اسوان الجديد ·

عشرات من سيارات الأوتوبيس الضخمة تنتظر · والى جوارهـــا لوحتان احداهما بالعربية والأخرى بلغة غريبة ستظنها الهيروغليفيـة حتى تقع عيناك على الوجوه البيضاء ، والشعر الأصفر ، والأجسام الضـخمة فتتذكر وتقول : آه ··· الروسية ·

ومن المحطة يمتد طريق واحد رئيسى على النيل يسير فيه الجميع ·· الناس وسيارات الاجرة والحمير وســيارات صـــغيرة تحمل لافتات تعلن انتماءها للسد العالى او القطاع العام او الحكومة · ليس بينهـــا سيارة خاصة واحدة ·· ثم سيارات الأوتوبيس الضخمة ، العربية والانجليزية والتشـــيكية · بالوان متعددة تعين وظيفتهـا وخط ســـيرها ·· الخضراء والحمراء تعمل بين أسوان والمدن المجاورة ، وهى سيارات أوتوبيس حقيقية بمعنى انه لابد من دفع ثمن التذكرة ·· أما بقية السيارات الصـــــفراء والرمادية والزرقاء فهى تقوم على خدمة العاملين وعائلاتهم فى السد العالى والأسمنت والمقاولين العرب وكيما والحديد والصلب ·· مجانا ·

وفى طريق النيل تنطلق هذه السيارات أمام صف طويل من المبانى الضخمة الجديدة ·· عمـارات سكنية ·· السوق السياحى ·· محلات ضخمة حديثة تابعة للقطاع العـــام ·· دار الثقافة والمـكتبة ·· فنادق ضخمة كاحدث الفنادق العالمية ·

طريق النيل ضيق ·· النيل على اليمين ·· وعلى اليســار شريط المبانى الجديدة ·· وخلفه المبانى القديمة فى حضن جبل ·· المكان كله مكدس ·· يدور فيه صراع رهيب · كل يحاول ان ينال من الآخر ··

النيل الهادىء سيموج بالحركة بعد شهر وعندما تصله امدادات الميـاه الحمراء من الحبشة سيهاجم المدينة ويحاول ان ينـال من ارضهـا ·· والمدينة القديمة تكاد تنفجر من الزحام ولا تعرف اين تزحف ·· وعندما ترى مكاتب المحامين فى الطريق مبـــاشرة بجوار محلات البقالة والمطاعم يخيل اليك ان المدينة القديمة تريد ان تنال من هدا الطـــريق الضيق وتزحف اليه ··· وبين الاثنين ـ النيل والمدينة القديمة ـ يمتد شريط المبانى الحديثة يحاول أن يشق لنفسه طريقا بينهما ، وفى البداية لن تستطيع أن تخمن نتيجة المعركة ، حتى ترى بعـــد قليل بوادر مشروع الكورنيش الجديد الذى ستزحف به رقعة الارض داخل النيل ·

***

الفنادق الضخمة التى رأيناها كلهـا مغلقة ·· والسـبب أننا فى الصيف ، وهذه الفنـــادق من فنادق الدرجة الأولى التى تعتمد على أعلى طبقات السياح ، ومعظمهم فى ارذل العمر يبحثون أساسا عن الصحة . والعلاج فى أسوان له موسم محدد هو أشهر الشتاء ·

ولكن أسوان تزدحم بالأجانب فى يوليـــو · انك تلتقى بالوجوه الأوروبية فى كل مكان · ولسنا نقصد الروس · فانت بعد دقائق من وصولك الى المدينة ستعرف كيف تميز الروسى عن غيرهم من ابناء أوروبا · فهم أولا يمتازون بالاجسام المتينة · وبالأناقة ·· الرجال يرتدون قمصانا مشجرة وبنطلونات على أحدث مودة وأحذية مدببة ·· والنساء فى الصباح يحملن سلالا كبيرة تزدحم بمشترياتهن من السوق ·· ولهذا فهن لسن بالقطع سائحات ·

فالمرء هنا يتدرب على تمييز السياح الاجانب من هيئتهم وملابسهم ·· فغالبية سياح هذه الفترة من السنة هم شبان جاءوا مشيا على الاقدام · أو فى سيارات صغيرة أو على دراجات بخـــارية وتراهم بالقمصـــان والبنطلونات القصيرة وغالبا تكون ذقونهم طويلة وملابسهم مهملة وهم شباب بعيون ذكية تتطلع فى كل اتجاه وتبدو فيها حمى غريبة · تدفعهم فى جميع أنحاء العالم دون أن تكون لديهم موارد كافية · وهم يتجهون على الفور الى بيت الشباب المجاور للمحطة حيث يقضـــون ليالى بقروش معدودة ثم ينطلقون بالنهار فى كل مكان ويذهبون الى السد · ويعودون مبهورين ليجلسوا على المقاهى البلدية · وفى حرارة الظهر يتمددون فى الحدائق العامة دائخين ·

على أن هناك فئة أخرى من السياح ، وسط بين أثرياء الشـــتاء ا

مرضاه ·· وشباب الصيف أو افاقيه · وهم يأتون فى الرحلات الجماعية · التى تنظمها مكاتب السياحة فى جميع أنحاء العالم أو يأتون فرادى فى هذا الوقت بالذات ليستفيدوا من اسعار الصيف المخفضة · وهؤلاء لن يجدوا الا مكانا واحدا فى استقبالهم هو فندق قديم بعض حجراته مكيفة الهواء ومعظم أسرته قديمة ذات عواميد وناموسية · واسمه جراند أوتيل ··

ولهذا فالحياة فى جراند أوتيل تجرى بطريقة غريبة ·· الناس نلتقى للحظات ثم تفترق الى الابد ·· عشرات الغرف تمتلىء وتفرغ بعد ليلة · عشرات الوجوه تظهر فى الشرفات وفى البهو مرة واحدة ثم تختفى ·· ليلة تمتلىء صالة الطعام عن آخرها وليلة أخرى لا تجد بها أحدا ·

ووجوه زوار بلادنا وزائراتها متوردة من الانفعال · هل السبب هو نشوة رؤية مكان جديد ، أو هو حر أسوان الذى يؤجج المشاعر ؟!

***

أمام جراند أوتيل قوارب تحملك الى الضفة الأخرى ، ويتوقف بك القارب وسط النهر على شاطىء جزيرة طويلة رفيعة اسمها « الفنتين » · هى أقدم الأماكن فى أسوان ، وكان الفراعنة يسمونها «جيب» وهى كلمة هيروغليفية معناها « الفيل » ولعل السبب فى هذا الاسم الصخور القائمة وسط النهر امامها التى تشبه الفيلة السابحة · وفى أحيان كثيرة كانت هذه الجزيرة هى النقطة التى تعين حدود مصر أيام الفراعنة ·

وفى هذه الجزيرة متحف صغير من أربع غرف ·· تتصدره تماثيل اله قديم تجسد فى صورة خروف ·· وفى الحوامل الزجاجية مجموعة من الأدوات القديمة بها تماثيل صغيرة جدا توضع مع الميت لتنوب عنه فى أداء الأعمال الشاقة فى الحياة الأخرى ·

ويقول لك الجميع : يجب أن ترى قبر اغاخان الذى يرتفع عاليا على الناحية الأخرى من النيل، وتصعد اليه فى طريق طويل يمتد كيلومترين · تطل منه على أروع منظر يمكن أن تقع عليه عين ·· قط لم تجتمع من قبل فى أى لوحة أو منظر هذه الألوان التى تراها من هنا · بعيدا الى اليسار سلسلة من الجبال الحمراء الداكنة · (بسبب مناجم الحديد) ·· أمامها على الناحية الأخرى التى يقع عليها قبر الاغا ، جبال رملية صفراء .. وبجوار الجبال عمارات بيضاء جديدة .. ثم فندق رائع بواجهة صفراء لامعة .. وتحته يربض قصر البيجوم الناصع البياض بنوافذه الخضراء

.. تليها فى النيل الصخور الجرانيتية السوداء الضخمة .. ثم فندق كتراكت بواجهته البنية : حيث كان الملك السابق فاروق يحتفظ بجناح خاص فيه ..

ويحملنا القارب من جديد الى جزيرة النباتات .. وفى الفارب فتاة فرنسية معها كتاب سياحى شهير هو « المرشد الأزرق » .. والكتاب آخر طبعة وتاريخها سنة ١٩٥٦ . ويقول الكتاب ان عدد السكان فى أسوان ٣٥ الف نسمة وان ثلاثة أيام تكفى لزيارتها هى وضواحيها . يوم للطواف بالمدينة والسوق ، ويوم للخزان ، ويوم لجزيرة الفنتين .

ونحن نكتب هذا الكلام بعد أن قضينا فى أسوان وضواحيها « ثلاثة شهور كاملة » لم تكن كافية كى نرى كل شىء .

والكتاب الفرنسى لم يذكر بالطبع شيئا عن السد..ودهشنا عندما وجدناه يتحدث عن زيارة حديقة كتشنر .. واكتشفنا أنه يقصد حديقة النباتات الاستوائية . التى كانت تحمل فى الماضى اسم القائد البريطانى الذى قاد الجيش المصرى وغزا السودان .

كم يبدو هذا التاريخ غريبا اليوم ..؟!

ويحملنا القارب مرة أخرى الى تلك العيون الغامضة فى الجبل التى تراها من كل مكان فى اسوان وترى السلم الطويل المؤدى اليها .. وصعدنا طويلا وسط الرمال .. ان العيون الغامضة مقابر نبلاء وامراء عاشوا هنا خلال المملكة القديمة .. المقابر ضيقة ومظلمة .. جدرانها ملونة بالسواد من اثر محاولات الرومان احراق المعابد والمقابر .. وعلى الحائط بقايا نقوش رائعة تروى أربع رحلات للأمير حرخوف الى بلاد النوبة وكيف عاد فى الرحلة الرابعة بقزم مرح ليرقص أمام الملك الطفل بيبى الثانى . وعندما علم الملك الطفل بأمر القزم كتب الى حرخوف قائلا :

« ترغب جلالتى فى امتلاك هذا القزم اكثر من جزية بلاد بنت واذا أحضرته الى القصر سليما فسيجزيك جلالتى خيرا .. » وبلغ اعتزاز حرخوف بهذه الرسالة انه أمر بنقشها على جدران قبره حرفا حرفا .. فسجل بذلك اول رحلة استكشافية الى السودان .

الرائحة العفنة فى المقابر لا تجعلك تطيق الوقوف أكثر من دقائق .. وتسرع الى الخارج .. ولا تدرى أتهرب من العفونة .. أم تهرب من التاريخ لقد كان أصحاب هذه المقابر من الملوك والأشراف .. يلبسون الميت منهم

التاج والحلى والسلاح ويزودونه بالطعام والشراب بينمـــا يشنق عبيده أنفسهم ويرقدون تحت أقدامه ليكونوا فى خدمته فى حياته الأخرى ..!

***

خطوة بعد خطوة .. الشمس تختفى .. والقارب يتجه الى أسوان .. وتظهر أنوار المدينة من بعيد .. ويمر القارب بالفيلة الرابضة فى الماء فيمشى ببطء وخذر ويكاد يقف .. والسكون شامل .. وتتطلع الى سماء بدأت تتلون بالحمرة فوق الجبل .. وتفتح صدرك لتســـتنشق الهـــواء النقى الجاف .

ونعود الى المدينة .. الى الانوار فى كل مكان .. ونغادر القارب الى الرصيف وسرعان مانضيع فى جموع الزحام الذى تتخلله مجموعات من السيدات الروسيات ينتظرن الأوتوبيسات لتحملهن الى مساكنهن فى المنشآت السكنية العديدة بالسد وقد أتممن جولتهن اليومية فى السوق وملأن سلالهن بكل السلع .

ان أعماق المدينة لم تتغير منذ أيام الفراعنة . لقد كانت تسمى أيامها « سوانت » .. ومعنى الكلمة الهيروغليفية هو « السوق » !

***

وحينما يذوب العائدون فى شوارع أسوان الغفيرة ودروبها الضيقة الملتوية تضع اسوان رأسها فوق ذراعها الجرانيتى وتنام كأنما لم يكن شىء يستحق أن يصحو من أجله الانسان .

ان اسوان لا تعرف السهر .. وليلها هادىء صامت .. يتمدد فيه الرجال فوق الحشائش أو المقاعد الحجرية على النيل .. ويسير الشبان فى هدوء وحزن فى شوارع معسكر الذكور الكبير .

وفى البداية كنا نتصور ان الآلات والعمـــل والانشـــاءات والخبرة الجديدة قد نجحت فى ان تغير اعماق هذا المكان النائى من البلاد .. ولكن المدينة الجرانيتية السمراء اثبتت انها ــ الى الآن ــ اقوى من كل آلة .

ان شباب اسوان الأسمر ، شباب من لحم ودم المدينة الصامتة .. انه شباب نحيل هادىء يتجول فى الشوارع مندهشا ينظر فى حسد الى محطات الأوتوبيس التى يتجمع حولها الروس صاخبين يحملون آكياسهم فى لهفة للعودة الى مدنهم الصغيرة حيث يعرفون كيف يستمتعون بكل دقيقة من وقتهم بعيدا عن المدينة السمراء المتجهمة .

***

منتصف الليل فى اسوان ..

اسوان نائمة تماما .. لا أحد فى الشوارع .. المحلات مغلقة .. اسوان تستيقظ فى السادسة صباحا وتنام مرتين .. الأولى من الواحدة ظهرا حتى السادسة .. والثانية من منتصف الليل الى الصباح .

الحديقة الرفيعة التى تتوسط شارع النيل مزدحمة بمئات الانفار الصعايدة الذين يعملون فى بناء الكورنيش .. وقد راحوا فى سبات عميق بعد يوم عمل شاق .

فجاه تتراقص انوار قرية من بعيد .. ويرتج شارع النيل الهادىء بالضجيج . ويعبره طابور من السيارات الضخمة تحمل اعدادا ضخمة من الرجال الى خارج اسوان .. انها وردية جديدة ذاهبة الى السد .. المدينة الأخرى التى لا تنام دقيقة واحدة فى الساعات الاربع والعشرين .. !

الطـــريـق

من اسوان حتى الموقع طريق من الاسفلت منحوت فى الصخر ، فى الجبل ، وأحيانا لا يقوى الطريق على اختراق الجبل فيـــدور حوله بمكر وغضب ، ويصعد ويهبط فى انحناءات مفاجئة .. يصعد حتى قمة التل التى لا يستطيع اختراق بطنها ويهبط مسرعا من ذروتها الى أسفل اسود لامعا مكفهرا .

هو بالليل شىء جميل وغامض تنيره على طول ثمانية عشر كيلـو مترا آلاف من المصابيح التى انبتها الطريق على جانبى جسده فتبدو من اعلى بقعة كبيرة من العيون المضيئة التى تحرس الطريق. كانها تخاف ان ينزلق هذا الشىء الاسود الى الصحراء المظلمة المستعدة المتحفزة ابدا لاسترجاع ما اغتصب منها ..

وهو بالنهار ، يتصبب عرقا وجهدا ، ودخانا وغبـــارا وضجة .. لاتوجد به قطرة ظل أو قطرة ماء .. انه مجرد طريق صحراوى متعب ، مجبر أن يحملك الى حيث تريد ..

لكنه بالليل يقودك فى رفق ، ويفتح لك قلبه المستطيل الصـــلب ويتنهد معك ، يبتسم أحيانا ، وتلمع اسنانه الصـخرية تحت عيونه المضيئة ويتقاذفه الصعود والهبوط مثلما تتقاذف الانســـان الحسرة والفرح .

**

ان رحلة الطريق تبدأ بالبحث عن سيارة . السيارة تقطع الطريق عادة فى أقل من ثلاثة ارباع الساعة. وليس معنى هذا ان تتصور انه يمكنك الذهاب الى السد والعودة منه فى ساعتين . فليس هذا ممكنا الا فى حالة واحدة فقط . اذا كنت تملك سيارة (ملكية خاصة او عامة) .. اما اذا كنت من عباد الله امثالنا .. فالذهاب والاياب يســـتغرق اربع ساعات على الأقل . وقد يأخذ منك يوما كاملا .. ويضيع منك فى محاولة اصطياد عربة .

وهذا هو بالضبط السبب فى ان ملوك السد غير المتوجين هـــم

السائقون • لا تصدق من يقول لك انه يكفى أن تشير بأصبعك لاى سيارة فى الطريق فتقف لتأخذك • لقد تخشبت أصابعنا من الاشـــارة ونحن ضائعون فى أطراف الطريق الطويل ولا احد يقف لنا •• ولـــكنك فى النهاية ستدرك صعوبة الامر •• فلو وقف كل سائق لمن يرفع اصبعه فى الطريق لما انتهى ابدا ••

الشخص الوحيد القادر على أن يوقف أى سيارة فى أى وقت هو جندى البوليس الحربى ••• ان جنود البوليس الحربى بشاراتهم الحمراء ينتشرون فى كل مكان كالملائكة • وحول كل منهـــم تلتف حلقـة من الضائعين فى الطريق ينتظرون الفرج ••

وتأخذنا السيارة فى الطريق •• وتقطع مسافات شـــاسعة فى صحراء كاملة قبل ان تواجهنا خضرة مفاجئة وعدة منـــازل •• وحائط ضخم به ١٨٠ عينا •• انه خزان اسوان القديم الذى وقف اميل لودفيج امامه مبهورا منذ ثلاثين عاما بالضبط وكتب يقول انه شاهد اعظم خزان فى العالم •

وبجوار الخزان محطة الكهرباء الضخمة التى شيدت فى عام ١٩٦٠ لتنير السد ومدينتى اسوان وقنا •• ومصنع كيما •• ويكفى لنتصـــور كمية الكهرباء التى تنتجها هذه المحطة ان تعلم ان عنبرا ضخما من الآلات فى كيما يستهلك من الكهرباء قدر ما تستهلكه القاهرة فى يوم ••

وتمتد الصحراء من جديد وفجأة تجد نفسك وسط مدينة سكنية كاملة •• صفوف من العمارات الحديثة الضخمة التى يبرز جهاز التكييف من كل طابق فيها كأنما هو خاتم ختمت به كل عمارة. وتستمر هذه الصفوف عشر دقائق والسيارة تنهب الارض وتختفى العمـــارات وتعود الصحراء • كل شىء تراه هنا لم يكن شيئا منذ أربع سنوات • مدن جديدة تظهر تحمل أسماء غريبة • السيل • هنا يعيش الروس والمصريون فى بلكونات متقابلة • ثم كيما • مدينة أكثر أناقة من السيل ليس لها علاقة بالمصنع الذى يحمل نفس الاسم سوى علاقة الملكية • فهى تضم العاملين فى السد • وغالبيتهم من الروس • وتمر بنا لوحات خشبية تحمـــل اعلانات أفلام تعرضـــها دار للسينما هنـــا • وتختفى المدن الجـديدة • وتصبغ الشمس كل شىء امامنا باللون الاحمر • وعلى طول الطريق تمتد مخازن للآلات وقطع الغيار وتكاد تظن انك وصلت الى آخر الدنيا ••

ان الطريق الصلب الصـــارم يســـتسلم تماما فى الكيلومترين

الاخيرين ويتخلى عن كبريائه السوداء المسفلتة • وينهار عند حـــدود الموقع ، الى طريق ترابى مزعج ملىء بالغبار والضجيج والاحجار والآلات والاصوات والاشياء والناس• انه يستسلم باستكانة فتسير فوقه بأقدامها الصلبة الجرارات والكراكات وبأقدامها البشرية الحافية والمنتعلة الناس والرجال والاطفال والنساء . وبالعجلات المطاطية تصفع وجهه جميع أنواع العربات • انه يصبح طريقـا خطرا فقد تصدمك فى أية لحظة غير حذرة عربة أو حجر أو كراكة او جرار او ونش او ماســـورة ••• انه يسلمك للسد ••

وكأننا دخلنا فجأة على أحد أحياء القاهرة الشعبية. .جامع ومقهى بلدى وزحام •• واعلانات سينما ولافتات وسيارات ومستشفى وبيوت صغيرة بلا نوافذ واكشاك مرور واكشاك سجائر واكشاك من الخشـب والطين والصفيح والاحجار والقماش حيث يباع الفول والجبن والخبز والشاى واللحم والعدس والطماطم والبطيخ المشقوق حيث يشرب العمال الجوزة مع الشاى ويجلسون لحظات راحتهم •

وتبطىء السيارة أمام لوحة بيضاء ضخمة • انها اللوحة الشهيرة التى رآها كل مصرى وكل روسى فى الصحف والســـينما •• وتحمل هذه الكلمات : « يابناة السد ، باق على تحويل مجرى النيل كذا يوم » وهى العبارة التى سجلت يوما بعد يوم سباق الزمن الرهيب مع الطبيعة الذى انتهى فى مايو ١٩٦٤ •• ان اللوحـــة مازالت تحتفـــظ بنفس العنوان الذى يخاطب ٢٢ ألفا من العاملين •• وتحتها هذه العبـــارة : « شكرا ، رعاكم الله واعانكم على المرحلة التـــالية » • والتوقيـــع (جمال عبد الناصر) •

وبجوارها لوحة مماثلة تحمل نفس الكلمات بالروسية ••

السيارة تسير ببطء • الطريق هنا صعب للغاية • والزحام شديد • وبرغم هذا فالمفهوم أن السائر مسئول عن نفسه . ولهذا لابد أن تمشى فى وجه السيارات لا امامها كى لا يحدث لك شىء وتراها جيدا على مبعدة• فلا وقت هنا ••

***

زوار السد يؤخذون الى النموذج أولا : أمام النموذج حمل مرافقنا عصا طويلة ، وجعل يشرح لنبـــا مرة على النمـــوذج ومرة على عشرات الخرائط المعلقة على الجدران الدائرية • وهو يتحدث بسرعة السيارةالتى

جاءت بنا ، ونحن نتابعه بأعيننا فى تركيز شديد نحاول ان نفهم الامامى من الخلفى والمنسوب الذى يرتفع من المنسوب الذى ينخفض • وتنتقل عيوننا مع العصا التى تروح وتجىء بين الخرائط والنموذج ، ولا ندرى موقع السد من النموذج ونخاف ان نسأل سؤالا يكشف عن بلاهتناونلوم انفسنا على أن دراستنا لم تكن علمية حتى نتمكن من استيعاب شىء من هذا الحديث .. والشاب ماض . يتوقف يردد فى تفه للماب الشرق والغرب وقناة التحويل والمجرى القديم ومحطـــة الكهرباء •• ونتعلق بعبارة واحدة قالها بدت اكثر بساطة ونرددها لانفسنا فى عصبيةلنفهم شيئا •• السد اكبر من هرم خوفو بســـبع عشرة مرة •• ومن خزان أسوان بثلاثين مرة :••

ورغم هذا ، لم تكد تسنح لنا الفرصة حتى هربنا من مرافقنـــا الشاب •• !

**

مثل الاوعية الدموية الصغيرة فى جسمك التى تنتشر فى كل مكان وتلتقى وتتباعد فى اكثر من مكان وتدوخ اذا حاولت أن تتبع بداياتهـا ونهاياتها •• تنتشر الطرق فى هذا العالم العجيب • فوق بعضها وبجوار بعضها • مازلنا نعجب كيف يتبين الناس معالمها • وكل الطريق فى منطقة العمل •• الموقع •• غير مرصوفة لانها غير دائمة • بعضها يختفى فجأة ، وبعضها يظهر فجأة كلها ستختفى بعد سنوات عندما يرتفع الكائن الضخم ليغطى كل هذه المساحة • متى ابتلعتك احدى هذه الطرقات اصـــبحت معرضـــا لان تتوه تماما •• ولا تعرف لك شمالا من جنوب أو شرقا من غرب •

والشرق والغرب كلمتان تترددان كثيرا هنا • وهما كلمتان ليس لهما أى مدلول سياسى على الاطلاق •• النيل بمجراه القديم هو الفاصل بين الشرق والغرب •• العمل الأساسى يجرى فى الشرق • هنا قنـاة التحويل •• والانفاق ومحطة الكهرباء •• وبجوارها مصنع الخراسانة الضخم ومئات الورش والآلات ومستعمرة سكنية للعمال والمهندســين ومستشفى وسينما تحمل اليها مقعدك وترى فيها فيلما جـديدا كل ثلاثة أيام مع جريدة سينمائية ولم تتغير منذ ثلاث سنوات عبارة عن رقص لنجوى فؤاد . وأخيراً الطريق المرصوف الذى يحملك الى اسوان ويمر بمدن مسكونة أخرى هى كيما والسيل .

وفى الغرب توجد مستعمرة سكنية أنيقة اسمها صحارى سيتى • مدينة جميلة نظيفة بها نادى روسى وصالة للبلياردو وسينما ومطعم يقدم وجبات للمهندسين بأسعار زهيدة ومكتبة يزدحم عليها طابور العاملين فى السد يستعيرون ما بها من كتب للكبار والاطفال •

فى الغرب أيضا الوزارة •• او الهيئة •• أو التفتيش •• عمارة ضخمة على ربوة عالية • تراها من أى نقطة فى الموقع •• هذه العمارة لها بابين رئيسيين على الجانبين • كل باب يقود الى الأدوار الثلاثة •• الباب الأيسر يقود مباشرة الى مكاتب الروس •• وفى البداية يخيل اليك ان العمارة تنقسم الى عمارتين احداهما للمصريين واخرى للروس • ثم تكتشف ان لكل مسئول مصرى هنا قرينا آخر روسيا فى نفس المكان من الناحية الاخرى واحيانا كثيرة فى نفس الغرفة •

وينحدر الطريق أمام الوزارة فى شكل دائرى •• وتمتد امامك على الفور عدة طرق •• وقبل عام واحد كان الذاهب الى الشرق يقطع طريقا دائريا طويلا يستغرق حوالى الساعة يعبر فى أثنائها خزان أسوان • ومنذ مايو ٦٤ أصبح هناك طريق صغير لا يستغرق بالسيارة غير دقائق •• طريق طوله الآن كيلو متر واحد •• على جسم السد •• !

معركة يومية

وسؤال بلا إجابة !

بعرض النيل ، امتد شريط من ركام الصـــخور من الشرق ..
وشريط مماثل من الغرب .. وبينهما ظلت فجوة واسعة يتدفق منها ممر مائى من الجنوب الى الشمال .

ووقفت على الشريط الركامى فى الشرق خمسة عشر عربة روسية قلابة ضخمة ممتلئة بالاحجار .. ووقف فى الغرب عدد مماثل ..

وبدأت الثلاثون عربة تلقى اطنانا من الصخور فى فجوة الماء التى تفصل بين الشرق والغرب ، وعندما افرغت العربة الاخيرة حمولتها التحم الشريطان الركاميان وتحولا الى شريط واحـــد من الاحجـــار والرمـــال والتراب ..

هكذا أغلق لأول مرة فى التاريخ مجرى النيل العظيم ، ليكون أول عابريه جمال عبد الناصر فى ١٤ من مايو ١٩٦٤ .. بينما كان السائقون يرمون بأنفسهم فى الماء بملابسهم ويسبحون خطوات داخـــل النهر ثم يعودون ليحتضنوا الجسر الترابى ..

وهدأت الحركة تماما فى النيل الذى ظل يموج طوال ثلاث سنوات بالصنادل والجبارات التى تحمل الصخور من قناة التحويل ومحـــاجر الجرانيت الى قاع النيل .. وزحف الرجال فوق الجسر .. فمنذ تلك اللحظة بدأ العمل على أرض راسخة ، ثابتة كالطود .

***

ان السيارات التى تشبه حيوانات ما قبل التـــاريخ العملاقة ... ما زالت تنطلق كل ساعة من الجاراج ــ المدينة الضخمة التى يصدر عنها دائما صوت كزئير الاسود ــ وتأخذ طريقها على الفور الى المحـاجر التى تحيط بجسم السد من كل ناحية ..

وفى كل محجر تتصدى للجبل كراكة روسية وعدد من العمـــال والفنيين المصريين يفجرون الصخر .. وتغرف كباشة الكراكة من الجبل لتملأ صندوق العربة .. ثم تنطلق العربة الى جسم السد ..

وبعد دقائق تصبح السيارات مجرد علامات متحركة ·· فوق الطرق التى ترتفع كخيط رفيع ·· ويبدو الافق كله خطا متعرجا من المرتفعات المتقاربة الملونة التى تحيط بالمكان كله كقوس هائل ·

وفى قمة هذا الافق تقف عدد من ماكينات التخريم مشرعة مـــل المدافع المضادة للطائرات ، تحفر الثقوب فى الجبل ·· وتقف السيارات لترتفع مؤخراتها عموديا · وتلقى بما تحمله من تراب وطمى وصخور على الارض ، فتتسلمه الهراسات والبلدوزرات وتدكه دكا فى جسم السد ·· وتفرغ المواسير ـ التى تمتد فى كل مكان ـ ما فى جوفها من رمال ومياه فى اندفاع وشباب وحيوية لتغطى جزءا من جسم السد وتحيله الى مفرش أصفر ذهبى يلمع تحت أشعة الشمس القـاسية ·· لينتصب بعد ذلك أول سد فى العالم ملبس بالرمال ··

ان مواسير التجريف هذه ، طريق اخر بطول ، من طرق النمل فى السد ·· فهذا الاختراع الروسى ، الذى يطبق لاول مرة خارج الاتحـــاد السوفييتى ـ ينقل ½ مليون متر مربع من الرمال شهريا ·· الى جسم السد ··

وفى داخل ممرات التفتيش التى تبدو من اعلى كقطـارين طوليين من عربات السكك الحديدية تعمل آلات الحقن فى صب كميات من الطمى السائل المختلط بمواد اخرى ·· فى مواسير تحملها الى اعمـاق مائتى متر تحت سطح النفق ·· لتصنع بتماسكها مع قاع النيل والاحجـار الملقاة حائطا من الصلب السميك لا يمكن ان تتسرب منه قطرة ميـــاه واحدة ·

ان الكفاح ضد التسرب هو اخطر مهمة يواجهها الســـد الآن ·· وفى المبنى الذى يطل من الغرب على كل شبر فى السد ، توضع الخطط وتحسب قوة المياه وقدرتها على التسرب وطاقتها ، وتعدلها تحصـــينات وخطوط دفاعية فى المقدمة والمؤخرة ، وآبار بطلمبات لنزح المياه، واجهزة اختبار وحلول احتياطية من داخل ممرات التفتيش ثم خـــط الدفاع الضخم ، الذى يقام وسط جسم الســـد · على عمق مائتى متر حتى يلامس القاع الجرانيتى ·· مكونا بذلك اضخم واعمق ستارة عرفهـــا انسان هذا العصر ·

***

وتعود السيارات التى انتهت ورديتها الى حظائرها ، تحمـــل على

أجسادها آثار العمل الشاق .. غبار وذرات تراب وطمى وطين وأسمنت وخدوش وأبواب مكسورة وعجلات منتزعة .. ويصبح الجراج مثل مستشفى الميدان .. مصابون ينتظرون علاجهم ليعودون مرة أخرى الى المعركة ، أو مرضى تحت الملاحظة ، يمرون بفترة النقاهة .. ينتظرون أوامر العودة ..

والعمل لا يتوقف والاوامر لا تكف .. كل شيء فى حركة دائرية .. .. دائرية وصعود الى أعلى .. ويتسلق عشرات من العمال ممرات التفتيش الماردة النائمة . وفى ايديهم نيران اللحام ليلحموا حديد التسليح الدائرى استعدادا لصب الخراسانة .. والناس تقذف بكميات من المياه من الخراطيم على الطمى الذى تهرسه الهراسات وخراطيم أخرى ممتلئة بهواء مضغوط قوى ينظف الصخور التى فجرت بالأمس استعدادا لالقاء الخراسانة فوقها . وكواسير التخريم تحفر فيها الثقوب لتستقبل الخراسانة التى يلتهمها السد وجبة يومية لا غنى له عنها .. واخشاب تعد وتصب عليها الخراسانة فى الحال .. وكل لحظة وكل ساعة ، وكل وردية وكل يوم ، وكل ليلة ، يرتفع جسم السد ، يحتضن الطمى والرمال والاحجار، ويستقبل آلاف العربات والصعايدة والروس ووكلاء الوزارات والمهندسين والفنيين ، ويحمل فوقه البلدوزرات والهراسات والعربات ومكن التخريم والديناميت والخراسانة والاخشاب ويتصبب الناس عرقا تحت وهج شمس حارقة وسماء لا تعرف الغيوم ، وغبار يتطاير ، وناس تأتى ، وآخرون يذهبون الى كيما والسيل وصحارى والسينما والمطاعم والجراجات والتركيبات والورش وكورنيش النيل باسوان ، واجازات تمضى بالناس الى مواقعها الاصلية فى جرجا وقنا وسوهاج واسيوط والاسكندرية والمنصورة والقاهرة . ويعود العالم لينضغط ويلتحم من جديد على هذه الارض فى مواجهة يومية بين الانسان والصخر والجبل والظمى ، وتحصينات ضد المياه ، والستارة والانفاق وكباشة الكراكة التى تعض الجبل يوميا وتجذبه وتلقيه ارضا .

- ٢ -

فى أول مرة ذهبنا الى السد قادتنا اقدامنا الى قناة التحويل .. والسور العالى الذى يطل على محطة الكهرباء ..

وعندما اقتربنا من السور وانحنينا فوقه وتطلعنا الى اسفل ، تملكنا نفس الشعور .. فقد تماسكت أيدينا وتراجعنا على الفور ..

دارت رءوسنا ·· وارتعشت مفاصلنا ··

فبعيدا الى اسفل ، كانت هناك خلية نحل ·· مستحيل ان تستطيع ان تفهم ما يجرى او تتبع شيئا او شخصا من البداية الى النهاية ·· الناس فى حجم النمل ، منتشرين فى كل مكان · دوائر حديدية ضخمة ، هى توربينات المستقبل ، وعشرات من الكبارى والسلالم الصغيرة التى تصعد وتهبط فى كل اتجاه وكل ناحية · والناس تتحرك عليها وتعجب كيف يستطيع كل شخص أن يفهم أوله من أخره ولا يختلط بالآخرين وتضيع ملامحه الخاصة بينهم ·

والادهى من ذلك ، الصعيدى الاسمر باللفافة التقليديه فوق رأسه والجلباب الابيض الملموم حول ساقيه ، الذى ظهر فجأة تحتنا ، وتطلعنا اليه جميعا برعب · كان يريد ان يهبط الى قاع الخلية على مواسير طويلة عمودية · وامسك المواسير بيديه وجعل يهبط ورأسه الينا وعيناه علينا وهو يبتسم ، ويهبط ويبتعد ، ويصغر شيئا فشيئا حتى لم نعد نتبين وجهه وان كنا نرى نقطة جسمه البيضاء التى استقرت اخيرا فى القاع وسرعان ما تلاشت بين مئات النقط الاخرى ·

ولم يكن بوسعنا ان نفعل مثله لنصل الى قاع خلية النحـــل ·· فتحولنا الى الطريق الدائرى المنحدر المؤدى الى محطة الكهرباء ··

والى يميننا جرت قناة التحويل ·· التى استمر العمل فى حفرها ثلاث سنوات ·· يطل عليها جبل شامخ مازالت تبدو على حائطه آثار المعركة الهائلة التى دارت بينه وبين الانسان · والى اليســـار جبل آخر ما زال رمزا ·· فهو لم يدمر الى نصفين بل نحت من اساسه على عمق ٨٠ مترا ، كى تتسع القناة لمليار متر مكعب من الماء فى اليوم الواحد ·

ووصلنا اخيرا الى الكوبرى الذى اصطلحنا على تسميته منذ اليوم الاول بالبلكونة · فمنها تطل على القناة وبوابات الانفاق الخلفية ومخارجها ·· وتطل على قاع خلية النحل ··

والبلكونة نفسها لا يوجد بها موضع لقدم · فهى مزدحمة بالكراكات والاوناش الضخمة التى تتحرك على قضبـــان حديدية لترفع بوابات الانفاق ، وهى اضخم بوابات من نوعها فى العالم ، اذ تزن الواحدة منها ٢٣٠ طنا ··

وفوق احدى الكراكات الضخمة ، كتب احد العمال المصريين بخط

متعرج : « احترس من سلطان » ·· وهكذا نالت الكراكة القـــادمة من موسكو اسما مصريا يدل عليها · فهى تسيطر على المكان تماما ، كل شيء يتوقف على الخطاف الحديدى الهائل الذى تحمله ، يدور فى كل اتجاه ويصعد ويهبط مع صفارة الانذار التى تطلقها الكراكة محذرة من ··· سلطان ·· !

ومن فوق هذا كله يحلق الونش الهوائى الهائل الذى يقف نصفه فوق الجدار الشرقى المرتفع ، والنصف الاخر فى الناحية الاخرى · غرب القناة ويصل بينهما سلك صلب قوى تنزلق فوقه علبة ضخمة تتحرك أوتوماتيكيا وتحمل خمسة أطنان من الخراسانة لتلقى بهـــا فى عشر دقائق على مداخل الانفاق ·· حيث تبنى قواعد التوربينات امام العيـون التى فجرت فى الجبل ··

وفى كل مكان تلمح شرارات النار منطلقة من أفواه خراطيم اللحام· نار زرقاء يقبض عليها بيد مدربة صعيدى كان يســير خلف الجاموسة ، وتركها فى طريقها ، وجاء يكتشف طريقه هنا ·

وبدأنا نهبط الى أسفل ··

وحملتنا ستون سلمة الى ركن صغير انزوى فيه بائع شاى ·· كأنما يعرف انك عندما تصل اليه تكون قد بدأت تلهث من العطش ·· ونعود الى السلم الحديدى مرة أخرى ·· وعندما ينتهى يبدأ سلم خشبى يصل بنا الى قاعدة التوربينه ·· خمس درجات فقط ، وبعدها تصبح بالضبط مسمارا صغيرا أو قطعة رفيعة من الخشب أو انسانا بجوار دائرة هائلة ، قاعدة من الخراسانة المسلحة تستعد ليضعوا فوقها التوربينة التى تزن مائتى طن ··

وندور حول قاعدة التوربينة ، ثم نواصل الهبــوط من جديد ·· فنحن لم ننته بعد ··

أربعون درجة من سلم عمودى نهبطها ونحن نلهث ·· ثم نشــعر فجأة بالهواء فى ظهورنا ·· وصوت « تش تش » قوى كالهواء المضغوط يتزايد كلما اقتربنا من النفق ·· حتى يضرب الصوت والهواء سيقاننا من فتحة فى ماسورة وبعد خطوات تتزل قطرات المـاء على رءوسنا ، ويبدأ النفق ··

رنين ضخم مفاجىء كأن ألواحا هائلة من الحديد تسقط أو تضرب بالحديد ، وقرقعات مدوية ، وخراطيم ضـخمة وكابلات وموتورات ··

وبرميل بالعرض ·· والمكان يظلم رويدا رويدا ·· ويختفى الضوء الآتى من الحلف ·· ذل ذلك ونحن مازلنا فى مقدمه النفق التى تمتد ٣٠مترا. وفوقنا فى السقف تلمع شرارات اللهب التى يصـــوبها عامل لحام الى الشبكة الحديدية التى تحمى الجدران ··

العمل يجرى على قدم وساق داخل النفق الذى لا يعرف العالم انفاقا أخرى فى مثل قطره (١٥م) ، فى أى مكان منه · العمال يفكون أسنان الكسارة الضخمة ليضعوا لها أسنانا جديدة ، وسرعان ما يستقبل فمهـا الضخم كتل الجرانيت الضخمة · وتدور الكسارة لتفتتها وتحولها الى أحجار صغـيرة فى حجم الطـــوب الذى يشوطه الاطفـــال بأقدامهم ·· وبجوارها كانت تقف فى شموخ كراكة تغرف بجردلها مئات الاطنان من الاحجار التى تتهدم من العمل اليومى · فى توصيل النفق المائل بالنفق السفلى ·· وحجرة مصفـــحة من الصلب فى مقدمتها مقعد يجلس عليه صعيدى امام ازرار وأشياء يتحكم فيها ، ويدفع الجردل ويسحبه ويرفعه ويخفضه ويلف بالكراكة نفسها حول نفسه ··

والناس تتحرك بسرعة ولا تقف تحمـــل عروقا من الخشب ومن الحديد · ويتقدم منا بلدوزر يخوض فى الماء ·· ونلتصق بالحائط ليمر بنا عدد من العمال يحملون أخشابا على أكتافهم ·· ونمر نحن بصناديق مغلقة كل صندوق رسمت عليه جمجمة وعلامة تحـــذير من الموت ومن الاقتراب ، وبداخل هذه الصناديق محولات كهربائية تمتد منها كابلات تغذى الآلات والمصابيح الموجودة داخل النفق ··

لقد بدأ العمل فى هذه الانفاق فى أغسطس سنة ١٩٦١ ، وانتهت فى مايو ١٩٦٤ ··

وكان العمل يجرى فى الوقت نفسه فى حفر قناة التحويل ·· أما ما يجرى الآن فهو حفر وبناء الانفاق المائلة ·· وهى ســـتة أيضا مثل الاولى ، وتنتهى فى مايو ١٩٦٦ ، والهدف منها أن يكون مدخل المياه أعلى من مستوى رسوب الطمى فيحال بين اندفاع الطمى الى التوربينات ·· وهى المرة الاولى ـ أيضا ! ـ التى تستخدم فيها هذه الانفاق المائلة فى العالم ··

ان كل رجل من الخمسة آلاف مصرى وروسى الذين عملوا سنوات ثلاث فى حفر هذه الانفاق ، ما زال يحمل حول عينيه دوائر ســـوداء داكنة ··

لقد كان حفر هذه الانفاق بالنسف عملا بطوليا حقا ·· لان الجبل كان كائنا مجهولا لا تعرف متى وأين ينفجر ·· ومن سيختار من الرجال ضحايا له ··

وربما كان هذا هو الذى جعل أحد العمال ــ واسمه سعد محمود حمد ــ يصيح فى يوم انتهاء العمل فى الانفاق والتحويل :

ــ السد خلاص ·· شطبنا ··!

ــ ٣ ــ

فى الانفاق قالوا لنا هنا بكى الوزير وكان ابنه قد مات ·· وفى الجراجات قالوا لنا : كان صدقى سليمان يجلس هنا طول الليل على الارض على اطار سيارة قديم ليرى العربات بنفسه وهى تخرج للعمل ··

وفى محجر « الوزير » ، قالوا ان هذا المحجر كان استراحة يشهد منها كبار المسئولين العمل «من فوق» ، وعندما جاء صدقى سليمان حول الاستراحة الى محجر الى مكان للعمل لا ليشهد منه العمل ، وعلى كل محجر وفوق كل طريق حكاية جزء من طرفها صدقى سليمان ·

لقد كان السد العالى فى حاجة الى فرقة من الرجال من نوع خاص·· ولا توجد ترجمة انسانية لهذا « النوع الخاص » سوى أن الوزير ينسى انه الوزير التقليدى الذى فى أذهاننا ، وان المسئول يحمل هما أكثر ، يحمل هموم العمل كله وهموم زملائه ، ويكومها فوق رأسه · وان الوزير يصبح فعلا أكثر الناس عملا وأكثرهم بذلا للطاقة ولدفع العمل ولمناقشة تفصيلاته بنفسه وبمعاونيه وبلا معاونين ، ويعيش كل ذرات حياته طول الوقت ، طول العمل ، طول الليل والنهار فى كل ركن ، وفى حنايا كل انسان ، يناقش ويحل مشكلة مهندس هجرته زوجته ، ويحل قضية توفير الآلات وشراء عربات جديدة ، ويمزج الخبراء الروس بالصعايدة المصريين ، ويقود الاوركسترا ويعزف أرقى سيمفونية شهدتها أرض مصر·

منذ السادسة صباحا ونحن نحاول أن نلقاه ، ذهبنا اليه فى محطة الكهرباء ، فقالوا لقد كان هنا وذهب الى الخلاطة ، وذهبنا الى خلاطة الاسمنت ، وقالوا لنا لقد ذهب الى جسم السد ، وفى جسم السد تتبعناه الى الانفاق ، ومنها الى المحاجر · ولم نلحق به ، وفى النهاية قابلناه فى مكتبه ·

أول انطباع فى عينيك من ملابسه ، من قميصه وبنطلونه ، أرخص قميص أبيض وأبسط بنطلون رمادى، رداء لايراه على وزير أبدا ، وأذرعه عاريه سمراء ، وجسمه شامخ مبنى ، الانطباع الثانى من سمرة وجهه الداكنة وعينيه داخل جبهته كتمثال فرعونى هرب لتوه من أحد معابد أسوان ، عملاق قديم أسمر فى لون الصخر وصلابة الجرانيت ..

وصوته الخافت وكلامه القليل يذكرك بالابطال الذين لم يترك لهم انغماسهم فى العمل فرصة اعداد الكلام وعادة ترتيب الالفاظ . وتحار فعـــلا ..

ونصف المقابلة معه كانت ضد المقابلة ! ، كان يستجوبنا بدلا من أن نسأله . وكنا نريد أن نعرف لماذا وكيف .. لماذا وكيف تحول السد الى معركة حقيقية . منذ جاء صدقى سليمان .. معركة يقودها هذا الرجل ويتخطى بها الحواجز المستحيلة . وقال هو : اعطاء الرجال المسئولية ! قال : اننى اؤمن بالانســان واثق به ، واعطيه المســئولية ، وفى أغلب الحالات ، بل دائما تقريبا تبنى المسئولية الرجال وتصنعهم وتضاعف من طاقاتهم ..

ابراهيم زكى قناوى ، نائبه الاول ، قال لنا ، السر هو فى الحب والتعاون ، هذا هو سر تدفق حيوية العمل فى السد ، فوزيرنا قادر على تجميع كل الخبراء والوكلاء والعمال وغرسهم فى العمل .

وابراهيم زكى نفسه نموذج آخر جنونى ، رجل تعدى الستين ، فى حيوية ابن العشرين ، خبـير بمهنته كمهندس كاقصى حد ، خبير بالنيل خبرة شخصية ، لمس كل شطآنه ، واشـــترك وعمل فى كل قناطره وحواجزه ، وعمل على كل شبر من ضفافه . لا يعرف انســان حدودا لطاقته . يحسب فى مكتبه كل قطرة ماء ، يرتب عمل كل كراكة ، عندما بدأ السد الرملى (الذى أقيم أمام قناة التحويل أثناء حفرها) ينهار فى بداية عام ١٩٦٣ كان اعتى الرجال يبكى وينهار ويقف عاجزا يشـــهد الكارثة ، وكان هو يعمل بذراعه ويصرخ ويشير ويضحك ويغضب ويضرب الارض بقدمه ، ويقول للرجال من حوله : سنبنى سدا آخرا لو انهـــار هذا ، وعلينا ان نقويه لنكسب ثلاث ساعات من العمل قبل أن ينهار ..

عندما كانت تنتهى مقابلاتنا مع هذا الطراز من الرجال ، دائما كان يحتل رءوسنا سؤال : هل هؤلاء الناس خلقهم السد أم جمعهم السد ؟

سؤال ظل يطاردنا ونحن نلتقى بكل رجل من رجال السد .. دون أن نعثر على اجابة عليه ..!

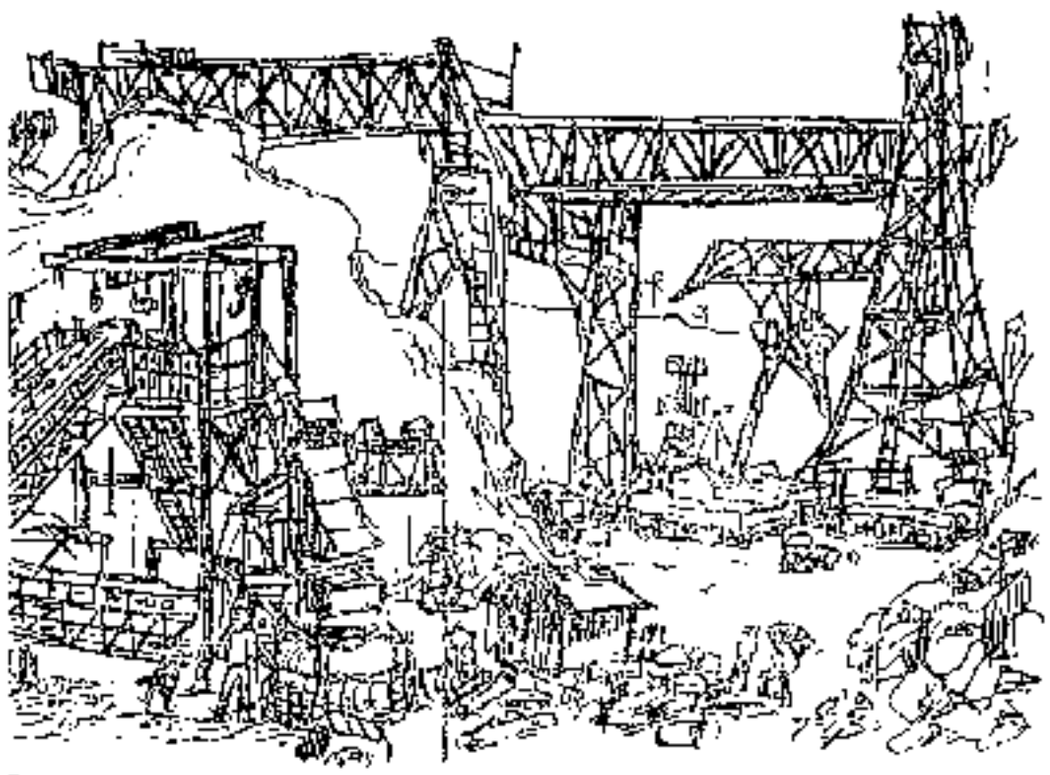

السّـــد بلدى

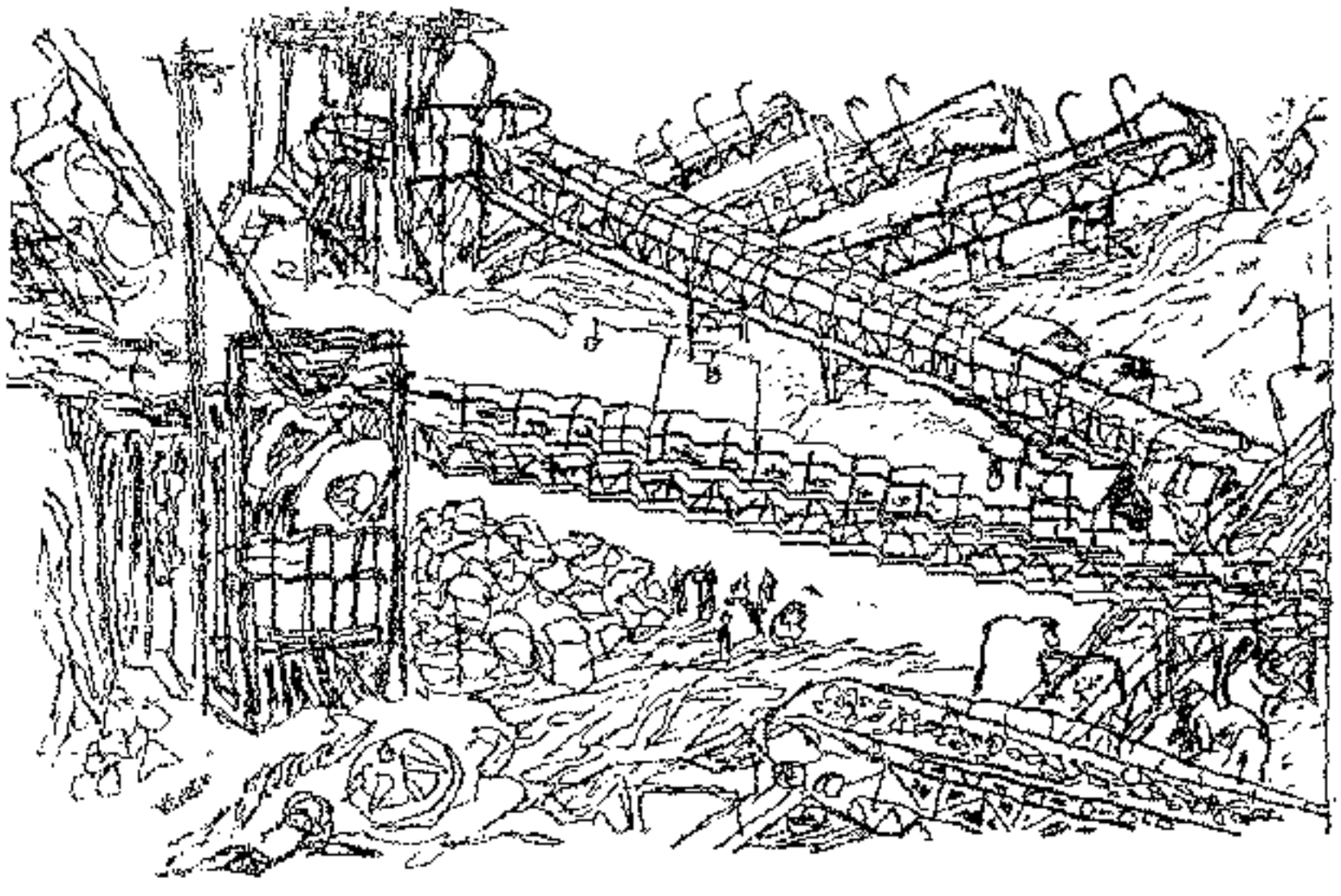

كان أسعد اللحظات اللى جرت لى يوم التحويل ، مفيش يوم زيه . منظر غريب . كان فيه لوحة بدات على ما أظن بيوم ١٦٧ لغاية مابقى يومين .. اعجوبة .. انا ماكنتش مصدق ان العمل حيخلص .. عامل خراسانة قال لى : انا زعلت فى اليوم ده. لان الميه غرقت كل اللى عملناه .. !

كانت نهاية ورديتى الساعة ١٢ ظهرا قبل التحويل بيوم ، وتركت محطة الكهرباء ، وبعدين راحت بيتى فى أسوان ، أنا متزوج وعندى أربعة اولاد ، ثم جيت تانى يوم الصبح كالمعتاد ومعى كارت دعوة من الوزير ـ باسمى: سيد محمد النجارى ـ لحضور الاحتفال ، نزلت من الاوتوبيس عند القناة الامامية ، لقيت زحمة شديدة جدا فى السد ، مكنتش عارف اتجه فين ، قالوا لى اتجه الى القناة الامامية ، وجدت صوان الريس وفيه الضيوف وسمعت خطابه ، وقام بتفجير السد الرملى الامامى واطلق حمام ابيض كان نفسى اجيب الاولاد ولكن الزحام كان شديد ، وكنت متضايق انى مجبتش الاولاد ومبسوط لانى بشوف يوم مش حيتكرر ، وكان فيه شغل تصور فى بعض الاماكن ، العمل لم يتوقف حتى فى هذا اليوم ، وغالبية العمال خدت أجازة ثلاثة أيام .

كان فيه اربعة واقفين فى أعلى مكان بالمحطة ومش متوقعين على الاطلاق ان الميه حتيجى ناحيتهم لكن اندفاع الميه من الامام عمل موجة عالية جبارة ، واحد انقذوه ، وغرق التلاته ، لو المية كانت تقابلت فى المحطة من الامام والخلف كانت دفدغتها. المحطة غرقت كل يوم التحويل، وكان على كل حتة فى المحطة معلقين اعلام ، الاعلام اللى كانت مرفوعة على مواسير هى اللى كانت باينة ، وكان منظرها غريب جدا ، باينة على سطح الميه ، وكأنها مغروزة فيها ، وقت تفجير السد الرملى الناس بتوع الحقن جم حقنوا الخراسانة لغاية مامنعوا تسرب المياه ، قبل التحويل بيوم كنا شغالين فى نظافة المحطة .. كانت اللوحة تدينا احساس أن مفيش وقت والوزير كان قاعد معلنا .

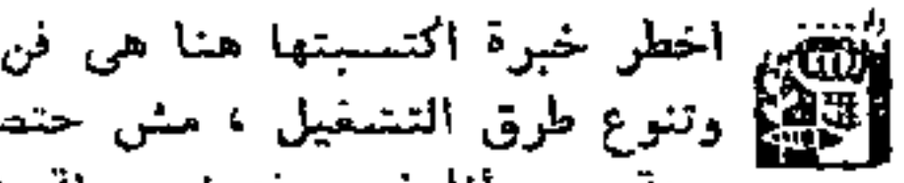

اخطر خبرة اكتسبتها هنا هى فن قيادة الناس وقيادة العمل وتنوع طرق التشغيل ، مش حتصدق لو عرفت ان سنى ٢٢ سنة بس، أنا خريج فنون جميلة، اسمى حسن توفيق ، المرحلة الاولى نجحت بسبب التعبئة السياسية الشاملة التى حولت السد العالى الى رمز قومى ومعركة وطنية ممتلئة بالتحدى والاقدام والخوف من عدم الانجاز بالجسارة والبطولة كحرب كمعركة كحياة ، وبالرعب من النكوص والرعب من فضيحة عالمية لو لم يتم ، كان العمل جاد وقاسى وممتلىء وكان مليء بالاختبارات القاسية . سنة ١٩٦٣ كان فيه خوف من الفيضان ، كان هناك سباق مع الزمن ، لازم قناة التحويل تكون جاهزة كان معروف ان فيضان ٦٤ حيكون جامد ، وكان هـذا اقسى اختبار ، لم يكن فيضـانا عاديا ، وكان لابد من الصمود او يجرف الفيضان كل شيء ، كل مابذل من مجهود ، كانت الصخور تلقى فى قاع النيل وكان من الممكن ان يجرفها الفيضان ويدمر كل الجهد المبذول . كان ممكن المياه تهجم على الانفاق وتدمرها ، ولكننا صمدنا امام الاختبار القاسى وحدثت تضحيات غالية وحقيقية .

اسمى حمدى توفيق محمد ، عمرى ٣٣ سنة ، من ثلاث سنين وانا باشتغل فى السد ، كلهم فى الانفاق ، اشتغلت ميكانيكى على الكسارات ، لما جابوها قطع مفكوكة وركبوها الروس . شفتها . الروس ما بيخبوش عنا أى حاجة مش زى غيرهم . معندهمش أسرار فى الصنعة كل حاجة يقولوهالك، ولازم الصنايعى يرمى نظرة على أى حاجة يفهمها . ويشتغل فيها اخدنا خبرة . عمرى ماشفت زى ماكينات التخـريم . ولا المكن الروسى كله جـــديد علينا . البولدوزر مثلا والا الكراكات . قبل السد كنت ميكانيكى ديزل ، بشتغل على مكن ديزل ، كنت باخد فى شركة تيكو ٩٠ قرش .. وجيت اشتغلت هنا بـ ٦٠ قرش وانا من مركز دشنا مديرية قنا .

أنا كنت مساعد سباك، فى اسنا، اسمى سعد محمود محمد، بشتغل كهربائى فى النفق ، اعمل من سنتين هنا . الاول كنت فلاح كل ما اعرفه تعلمته من السد . بتزوج وعايش فى السيل الشعبى . شربت الشغل لانى مبسوط انى بتعلم حاجات جديدة . كل

الناس اللى انت شايفهم هنا فى النفق كانوا فلاحين واتعلموا . السد خلص خلاص . المرحلة الثانية تشطيب مش زى البداية . الشغل دلوقت دقى المرحلة الاولى ماكانش الشغل دقى . كان فحت وحفر وسواقين وعربيات .

أهم طابع للسد هو السرعة، معركتى ضد الوقت، عملية عناد، ضرورى السد ينعمل ، الوزير فى أيام المرحلة الاولى كان قاعد قصادنا فى الجاراج على فردة كاوتش على أرض الجاراج هنا ، أنا سافرت بلاد برة . محمود نجيب راح انجلترا . هنـــاك فى مصنع البارفورد بيركبوا ٤ فرد كاوتش للعربية فى ١٥ ساعة نظامهم كده . احنا بنركبهم هنا فى الجاراج ده فى ساعة . هنا الحماس هو الاساس هناك امكانيات غير عادية بيشتغلوا بالكهرباء وأوناش وآلات ومعدات . هنا الشغل عتالة . اكتشفنا هنـا ان السوست بتنكسر بسرعة ، عملناها وصنعناها محليا وأضفنا سوستتين للشاسيه . وعملناها على ١٥ ورقة ، وحددنا الورقة بالضبط ايه . هنا فى الجاراج ده ولما رحت انجلترا لقيتهم نقلوا نفس الفكرة بتاعتنا وأضافوها للتصميم بتاعهم . عندنا الميكانيكى متفتح جدا . احنـا اسرة واحـدة فى العمل بنقعد مع بعض فى الجاراج اكثر من عشر ساعات علاقاتنا ودية ، مفيش ريس وضرورى العامل هنا بيشتغل اكثر من المطلوب منه بسبب هذه العلاقات ، فى انجلترا واوروبا لايمكن العامل يقعد بعد الثمانى ساعات دقيقة واحدة هنا عندنا فى الجاراج تعال شوف بص ناس بتيجى قبل الوردية بساعة ونصف عشان توضب شغلها وتقعد بعد ساعات العمل ، احيانا العمل يحتاج نقعد شوية احيانا بنقعد بالتلات ساعات برضا العامل ومزاجه . حاجة غير معقولة وظاهرة لايمكن تجدها غير هنا ، ملناش شغلة غير الشغل هنا . العـامل البسيط هنا بيبتكر حاجات كتيرة جدا قلبه على الشغل قلبه على المشروع، حماسه نابع من احســاسه بالبلد كلها ، فى انجلترا الجمـاعة بتوع مصنع الرولزرويس بيعترفوا بانهم استفادوا من العيوب التى ظهرت فى العربية بتاعتهم بعد شغلها فى السد العالى .

رأيت فى لندن شباب الانجليز حاجة غير معقولة ويستحيل انى اوصفها لك شباب متعفن ومنحل بشكل غريب وقذر جدا . مابيستحموش وشعرهم طويل وكسالى ، وعايشين بطريقة لا يمكن تصورها . مثلا فى

ذهنى صور لشبابنا احنا . الناس اللى بتشتغل فى السد العالى ١٨ ساعة بقوة وعزم ، مفيش نسبة على الاطلاق ، قال لى احد كبار المهندسين الانجليز راجل سنه خمسين سنة ان الشباب عندهم مش بتاع شغل خالص ، الناس الكبار بيتحسروا على الجيل بتاعهم قالوا لى بعد عشرين سنة أو ٢٥ فيه شعبين حيتصدروا حضارة العالم ، هما الشعب المصرى والشعب الرومى . ودى كانت مفاجاة لى ، وقالوا لى دول حيعيدوا للعالم حضارته من جديد ، اللى خلاهم يقولوا كده ، لما شافوا شبابنا والعمل هنا فى السد .

انا خدت دروس من عملى هنا ، لازم اتبع بروجرام ، فى الصيانة ، فى أول مشروع حابدأ فيه بعد السد حنفذ هذه الخبرة ، حوضع بروجرام الصيانة ، الانجليز قالوا لى احنا افتكرنا ان احنا كسبنا الحرب وده مش صحيح ، اللى كسب الحرب المانيا ، كل شىء فى انجلترا دلوقت المانى .. وامريكانى . العربيات بتاعتهم دلوقت موتوراتها جنرال موتورز (امريكانى) والمكن فى المصانع المانى .

المهندس عندنا كشكول وده غلط ، فى مصر كل مشاريعنا عبارة عن خدمة تنفيذ ومفيش انشاء ومابنشتغلش فى التصميم أبدا .. عاوزين نصمم بأه لبلدنا . انا تخرجت فى جامعة عين شمس قسم ميكانيكا سنة ٦٢ ، وجيت على السد على طول ، انا من قلبوب خطبت واحدة قريبتى باحبها ، كنت بكلمها من هنا فى مصر كل اسبوع ، ولكن فى فترة أواخر المرحلة الاولى الشغل كلنى خالص وبدأت هى تفقد ثقتها بى ، هل تتصور اى واحد بيشتغل فى السد ممكن يعمل اى حاجة تانية . أنا هنا لما يخلص شغلى بروح اقعد على الرملة ، على جسم السد ،واتفرج على العربيات رايحة جاية ، تنقل حجارة وطمى ، بحس طول ما العربيات بتشتغل بالفرحة بان انا اللى بابنى السد حتلاقى الشعور ده عند كل سواق وعتال ومهندس وملاحظ . ومع ذلك انا بشعر انى انا اللى بنيت السد . ورغم هذا بددت ثقة خطيبتى كل الناس هنا بتثق فى ولكنى فشلت فى ان اكسب ثقتها .. واتفسخت الخطوبة .

اسمى نصرالله جاد عبدالمسيح، ٢٠ سنة اشتغلت فى السد وأنا عمرى ١٨ سنة ملاحظ خراسانة ، مابدخنش عشان السلم صعب قوى ، أقوم بتحديد منسوب صب الخراسانة والاحظ نزولها أشرف فى اليوم على صب ٨٠ مترمكعب خراسانة بصب يوميا عشان التوربينات حوالى ٢٥٠ متر مكعب خرسانة فيه حاجات مشفتهاش غير هنا فى السد، أول مرة أشوف الهزازات اللى بالكهرباء (آلة لتقليب الخرسانة) اول مرة أعرف الفواصل بين الخراسانة وغيرها، مشفتش ابدا تسليح زى اللى هنا أبواب الانفاق أكبر أبواب فى الدنيا ، الونش اللى بيرفعها صممه مخصوص عشانها . انا باصحى فى الساعة ٥ الا ربع لالحق العربية واوصل هنا فى السادسة صباحا ، أوصل بيتنا فى العادة الساعة ٣ بعد الظهر واحيانا اصل ورديتين مع بعض ، أنا من اسنا ـ الفطايمة مركز اسنا ـ وساكن فى اسوان ـ اتعلمت من الروس رسم البلوك وقطاعاته الافقية والراسية وتعلمت ترقيم البلوكات . كل حاجة عند الروس بالرسم .

كنت حابقى رأسمالى تصور ، اسمى انيس حنا معوض ، كان عندى اجتماع مع نائب الوزير ، انا مهندس مدنى للانفاق اشرف على الحفر والخرسانة وتشغيل الآلات والتخريم والتبخير قضيت فى الانفاق ٣ سنين ، عمرى ٣٢ سنة ، اشعر بالسعادة لمابشوف نتيجة شغلى ، وبافخر لانى اشتركت فى العمل ، شغل مكناش بنشوفه فى البلد قبل كده وكنا بنشوف حاجات زى كده فى الكتب وفى الافلام ، وكنت باذهل واستعجب ودلوقت انا مابقاش فى قلبها ، كنت شغال فى شركة لمدة ٥ سنين أول ما بدات أكون نفسى وفتحت مكتب جالى أمر تكليف على السد . وده غير مجرى حياتى على الآخر ، بدأت بالمهن الحرة وتذوقت طعم المكسب . انا استنشق هنا تراب طول الوقت ١٢ ساعة فى اليوم بشتغل وآكل وانام ، بكتسب خبرة لقيت نفسى مندفع للعمل بعد ماوصلت هنا بصورة لاأصدقها بالنسبة لنفسى ، الخبرة ، روح العمل نفسه ، تديك برغم كل الصعوبات روح جديدة وطاقة لامثيل لها ، ضخامة المشروع وشعورى بأنه من أكبر مشروعات العالم ينسى كل التعب وكل المكسب القديم . طموحى اشتغل بايدى على طول بعد السد حاطلع على منخفض القطارة ، او الوادى الجديد ، حاعيش طول حياتى بعيدا

عن العمران ، ومعنديش امل اسكن فى مدينة ، المهندس كده .. يروح الاماكن ويعمرها . ولما تعمر مايسكنش فيها ، ينقل نفسه على طول لمكان آخر . وهكذا .. احنا بلادنا عاوزة كده والعصر اللى عايشين فيه عاوز كده . انا اتعودت خلاص ، اتعلمنا هنا العمل بعيدا عن الروتين وتعقيدات البيروقراطية ، لما انزل القاهرة بتضايق من زحمتها ، واحيانا ببوس القطر ، اقرأ احيانا فلسفة وعلم نفس ، عاوز أعرف البنى آدم ، ليس لدى وقت فراغ ، فأنا فى الانفاق صباحا ومساء .

أنا تطوعت للعمل هنا . طلبت من مدير الترسانة فى بورسعيد ان اتركه من اجل العمل فى السد . كنت باشتغل فى مشروع ناصر لتوسيع قنال السويس . اسمى حمدى متولى ٢٥ سنة، من بنها . . السد مدرسة فى العمل ونظام التشغيل والمعدات والروح اللى فيه ، السد خلق حاجة تانية خالص ، خبرة وناس جداد ، أى مشروع بعد كدة حيبقى سهل ومعقول ، اتمنى اعمل فى سدود البلاد العربية اخويا بيشتغل هنا فى خطوط الكهرباء عملى وحياتى وخبرتى ومهنتى أصبحت مرتبطة بالمشروعات العصرية الضخمة الناصرية ، مشروع ناصر لقنال السويس ، وسد ناصر العالى . .

كنت سواق بلدوزر فى مديرية التحرير ، اسمى بدرى شاذلى ، عمرى ٣٦ سنة جيت أسوان عشان هى بلدى ، اكتسبت هنا قوة الاحتمال والصبر . العمل صعب . أنا سائق هزاز لدك الرمل فوق جسم السد ، ورديتى ١٢٠ متر سمكها ٦٠ سم امر عليها بالهزاز ٢٠٠ مرة فى اربع ساعات لكى يصبح سمكها ٤٠ سم او ٣٥ سم . احنا تسع هزازات بنشتغل فى قلب جسم السد ، الهزاز عبارة عن جرار ومن خلفه برميلين كبار مربوطين بعمود كزدان بالجرار ، والعامود مربوط على سوست ومواسير تمر منه طول الوقت هزة ، الهزة والسير فوق الرمال تعمل ضغط يخلى الرملة تمسك فى بعضها . هوايتى الموسيقى ، انا عامل وسائق ولكنى احب الموسيقى بدأت معى الموسيقى بطريقة مضحكة . ستضحك عندما

أقول لك انى هويت البروجى ، هذا النفير المزعج عندما كنت فى الجيش، وصممت انا اللى جاى من اقصى بلاد مصر اسوان المتاخرة جدا فى ذلك الوقت انى اتعلم هذا البروجى العجيب اللى جذبنى ولكنى اكتشفت بعد كدة ان البروجى ليس هو الموسيقى وانما كان بداية لطريق صممت ان أخوض فيه . ولم تنفجر طاقتى وحبى ومزاجى الا هنا على جسم السد ، تعرفت بالروس واحد منهم لاحظ هوايتى ، فدعانى الى النادى بتاعهم وبدأت اتعلم ، ادك السد بالنهار بالهزاز والجرار وفى المساء انفخ والعب فى الخروم النحاسية بصوابعى وانا الآن اضرب على العود والطرمبة والآلات النحاسية واشتركت فى اكثر من مائة حفلة موسيقية وانا عضو فى الفرقة الروسية المصرية الموسيقية فى كيما ، عملنا حفلات ما تنعدش ، وعزفت مئات المرات ، ويوم التحويل احسست بكرامتى وبانى مصرى حقيقى وبانى بنى آدم ، واحلى يوم فى حياتى لسه ما جاش ولكننى على موعد معه واعرفه جيدا ، يوم ننتهى من السد تماما ونقف فوق قمته وننظر الى المياه التى حجزناها وسددنا عليها مجرى النهر ..

هوايتى التمثيل .. عمرى ١٩ سنة ، اسمى ماجد مصطفى، اصلا من العجوزة ، بقالى هنا ٣ سنين ، كنت طالبا فى الاعدادية فى القاهرة تركتها والتحقت بمراكز التدريب فى مصر وتعلمت سواقة البلدوزر ، وتعلمت اللحام والخراطة وأنا سعيد انى باشترك فى بناء جسم السد ولو حتى اشتغل عتال هنا لازم ابنى السد كلنا هنا يد واحدة سواقين الهزاز ، احنا اللى بنكتم نفس الرملة !

أنا هنا مهندس مقيم ولست صفوت شاهين وكيل الوزارة، لا تعجب لأنى أجلس هكذا على الرمل ولا تهمك ملابسى هذه، فنحن هنا نعمل ، انا لا اتصور الفشل ، لا اخشى عقابا من المسئولين الكبار وانما فقط اخشى أمى فى البلد التى تعرف ان ابنها يبنى السد فكيف أعود اليها فى قريتنا وأقول لها لقد فشلنا يا أمى ولم نستطع تحويل النيل، هنا فى الحقيقة ، اللى بنى السد، البناة الحقيقيون هم

الصعايدة ، بعقولنا وبخبراتنا وبالادوات كلها كان من المستحيل ان نبنى السد بدون اذرع الصعايدة وعزمهم وتضحياتهم هنا نحن لا نخاف الاخطاء . لا وقت للمداراة عليها لو دارينا ، لو غطيناها سنواجه بكارثة لذلك فبمجرد ان نخطىء نعترف فى الحال بخطئنا كى نصححه ونتعرف منه على الطريق الصحيح ونتجنب أن نخطىء مرة ثانية ، العمل هنا له روح يحسها ويعيها ابسط واصغر صعيدى هنا يعرف جيدا انه يبنى السد لمصر كلها . عندما ننتهى من السد سنذهب على كل شبر من النيل وكل جسر وسنبنى من جديد عشرات القناطر ، سنفرغ من السد العالى بسرعة ، ليس لدينا وقت، ولدينا عشرات الاشياء الاخرى ، أنا احب السد لانه شىء لا يخص احداً بالذات ، ومعركة لا يمكن ان تنسب لمجموعة بالذات ، احبه لانه يخص مصر كلها والمصريين كلهم .

اسمى معزوز عطية من مركز نجع حمادى ٣٧ سنة كهربائى ، اشتغلت مدة فى الخزان قبل السد.اعمل الآن على مكنة ١١ « موتور جنريتور » ، معناها موتور على مولد ، وعلى ترنسات اللحام ، واشرف على اضاءة محطة الكهرباء بالليل . وعلى الهزازات اللى بتهز الخراسانة بالكهرباء والاوناش الكهربائية ، شفت حاجات مشفتهاش قبل كده . كافة المعدات مثل ترنسات اللحام الروس .. ومكنات اللحام ، اتعلمت من الروس عملية المفاتيح الاوتوماتيكية اللى بتدور طلمبات خلط الخراسانة ، اعمل هنا من ١٩٦٣ فى محطة الكهرباء . وأحيانا أثناء التفجير كان يبقى على بعد عشرين متر مننا ونضطر أن احنا منتركش عملنا ، مرة ترنس كبير ٦ كيلو قوته ٤٠٠ فولت ، الونش جه على كابل الكهربا ، الونش حمولته كبيرة وكانوا ماربن على كمر حديد ، وبجواره ميه ، الونش قشر الكابل اتكهرب الونش وصعق العمال اللى كانوا ساحبينه وماشيين فى الميه وكان هذا من اسوأ اللحظات اللى مرت بى . اما اسعد اللحظات فكانت يوم التحويل .

كمال كامل مصطفى ، من المنيا ، ٢٠ سنة ، حياتى اتغيرت من المدرسة الى السد العالى . كان ده صعب جدا على ، معاملة الناس فى العمل كانت أول مواجهة لى فى السد العالى تعلمت كيف اعمل واتعامل ، الاحساس بالمسئولية ، النضج المفاجىء ، البعد عن الاهل ، الاستقلال تماما الذى لم اتعوده كشاب ، أن اعيش منفردا واعمل وسط ناس بعد أن تغير وسط الطلبة كان هذا قاسيا .. ومفيدا لى .. أحنا عاملين « دورى طاولة » وبنشيل حديد بمجرد ما أخرج من العمل أتشطف ، الميه بتزيل التعب ، بعد الطاولة أحيانا نتفرج على الافلام فى التليفزيون . وسائل الترفيه ناقصة جدا ، فى اسوان سينمتين فقط ، مفيش مسرح ، احساس العازب بالوحدة رهيب ـ مشكلة خصوصا فى اسوان ، حاجوز لما يخلص السد ، وبعدين حتواجهنى مشكلة المسكن طبعا .. يعنى لما الواحد ييجى يجوز ـ الفسيل مشكلة صعبه . اصعب من صب الخراسانة . الايام الصعبة لما افاجا اثناء العمل بالتفجير . والصفارة تضرب . ويكون عندى شغل، فمقدرش اخرج من العمل ، لو فارقته العمال حتخرج ورايا ، فاضطر اقعد ، واتعرض طبعا لمخاطر احجار التفجير الطايرة . الجو سخن . اقاومه بخلع ملابسى كلها ماعدا جزء من ملابسى الداخلية ، فى حجرتى طبعا . احس بان احسن يوم عندى لما بشوف اهلى ، لما بييجى لى جواب ، وده تقريبا كل ستة شهور مرة . وخصوصا ان اهلى بيشعروا ان ابنهم بيشتغل فى السد ، وان دى حاجة كبيرة عندهم قوى ، تصوروا ! .

بحر صيام ، كهربائى ، ٣٣ سنة شكلى اكبر من سنى من الديناميت ، قبل كنت أعمل فى شركة السكر مساعد كهربائى من المرحلة الاولى وأنا هنا ، جيت عشان بلدى ، اتعلمت هنا فى الهزازات وتوصيل ترنسات اللحام والانارة . اللمبة الكبيرة هنا بـ ٢٥٠ قرش ودى مسئولية أخذت خبرة كبيرة هنا ، انا من اسوان نفسها ، السد ده بلدى ، تركت العمل فى السكر عشانه. أنا عاوز المهندس بتاع شركة السكر يقرا الكلام ده علشان يعرف انهم ما كانوش بيقدرونى ، وهنا فى السد أحسن ، انا باتعب اكثر من شركة السكر، وباخد فكرة احسن ، لكن هنا فيه تقدير ، ازاى اقعد عندهم تسع.

سنين وميفدرونيش ، فى المرحلة الاولى كنت باشتغل وسط الديناميت، وانا مبسوط عشان الناس هنا بتقدرنى ، فى ارمنت مبيقدروش العمل ابدا زى هنا .

كل شىء اتغير فى حياتى حتى اسمى . قالوا لى اسمك تفيل، اسمى تاوضروس كندس ، سمونى فى السد « حمـــام » تعالى يا حمام ، روح يا حمام ، واصبح اسم الشهرة حمام . سنى ٢٥ سنة ، أعمل هنا من سنتين ، كل شىء فى حيابى انغير . كنت أعمل مع أبى فى بلد جنب نجع حمادى هناك ، كنت أعمل مع تاجر مواشى آخد البهايم اوديها السوق وارجع بيها . هنا انا بشتغل مســـاعد كهربائى ، تعلمت هنا ، السد غير أى بلد تانية ، تعلمت هنا حاجات كتير قوى ، فى الكهرباء وفى الخرسانة ، شفت الفورمة لاول مرة فى حياتى والبلوك الجاهز .

أنا باشتغل فىابحاث السد من ٥٣، كنت مسئولعن مشروع الفرات فى سوريا أيام الوحدة ، انما انقلاب البعث وقفه . سنة ٥٩ لما كان السد لسه حلم على الورق ، وترجمتـــه الوحيدة الى الواقع بضع آلات ومعدات تعد على أصابع اليد ، قابلنى كاتب امريكى فقلت له ان غلطتنا ان احنا طلبنا منكم معونة فنية فقال لى : وماذا تفعلون وليس لديكم اســتعدادات فنية ، ولا معدات كافية ، وأشرت الى بعض المعــدات القليلة وقلت : اســتطيع ان ابدأ بهــذه الآلات فتحدانى الامريكى وقال لماذا لا تبدأ الآن ، قلت له : أنا فى انتظار مكالمة تليفونية من ناصر لأبدأ على الفور .

والمكالمة ماتأخرتش ، وعلى فكرة المهنـــدس أيوب هــو صــاحب الفكرة ، الخواجا اليونانى لم يكن يفكر فى عمل خزان وانما سد لتحويل المياه الى الوادى الجديد . اما سيد ايوب فجه فى ســنة ٤٥ وقال لا ضرورة لتعلية خزان اســوان مرة رابعة وانما نعمل ســد جديد

قدامه . طلبه لم يقبل وقتها لأنه كانت هناك مشاكل فنية لم تحل عالميا زائد الظروف السياسية وقتها . السدود الترابية لم تكن معروفة وقتها . الحقن من عشر سنوات كان يعتبر اعجوبة وهو دلوقت موضوع مثار عالميا اللى هو الستارة وقتها كمان مكنش يمكن أى مشروع جاد للبلد يتنفذ ، أهم حاجة تميز العمل فى السد هى التفاهم المتبادل والحب بين الناس . مرة واحد عامل كان عنده مشكلة دخل على وقال لى يا ابراهيم يا زكى انت نائب الوزير ، وانا جيت لك يا شيخ اكرامية عشان انت راجل كويس وبيقولوا عليك راجل طيب . انا شعرى أبيض صحيح وبيقولوا على عجزت . لكن انا باقوم من النجمة أنا عضو كمان فى لجنة العشرين بتاعت الاتحاد الاشتراكى وباستمرار باديهم محاضرات . انا عملت كتاب عن زيارة بعثة الفنيين المصريين لليابان والهند والصين فى أواخر سنة ٦٤ عشان دراسة سدود البلاد دى ، المسئولين وافقوا على مشروعى لحل مشكلة النحر فى السد باقامة عدة قناطر على مجرى النيل ممكن تنتج من الكهربا قد أللى حتنتجه محطة السد العالى .

بلدنا زمان كان اسمها البلاص لكن دلوقت اسمها المحروسة، انا من مديرية قنا ، سنى عشرين سنة ، واسمى قاعود محمد عبد المنعم ، اعمل هنا من سنتين ، كنت باشتغل مزارع فلاح بالفاس ، عامل زراعى ، ناس جت من بلدنا ع السد فجيت ، أول ماجيت اشتغلت عتال . نشيل ونودى . واللى يطلب منا حاجة نوديها له . دلوقت انا مساعد كهربائى تعلمت المفاتيح الاوتوماتيكية وترنسات اللحام ، كنت دايما اقف جنب الصنايعى ، وابص عليه ، واساله ، فى الاول خفت من الكهربا ، واتكهربت كتير ، والكهربا صعبة، والاسطى ضربنى ، مرة لقيت اللمبة مطفية ، ودخلت عليها .. ومعرفش التيار مقطوع منين ، واتكهربت طبعا ، دلوقت بجيب خشب تحتى واقف عليه . الكهربا جبارة ، اتعلمت ازاى اشد دراعى بكل قوتى لورا لما اكهرب ، واعزل نفسى فى الحال . الغشيم أول مايكهرب ضرورى يتعور ويمكن يموت عشان بيتلخم وميعرفش يتصرف أنا اشتغلت يوم التحويل نفسه ، ما بطلتش شغل .

أنا بلدياته، من البلاص كمان، اسمى مدبولى عبد المتعم ١٩ سنة ، كنت مزارع اجرى ، فى البلد كنت باخد عشرة صاغ الأجر ومابيكفنيش ، هنا باخد ٢٤ قرش وباشتغل عتال ٠ وبعافر عشان اشتغل كهربائى ، باشيل الكابلات ، وراء السكهربائى بشوف بيشتغل ايه ، هنا الناس بتساعد بعض وبتعلم بعض ، وحبقى كهربائى ٠

ربما أكون أصغر شاب فى الجمهورية يحمل وساما من الرئيس عبد الناصر ، عمرى عشرين عاما ، اخذت الوسام فى العام الماضى ، اسمى صفوت كمال ابراهيم من المنيا ، اقدر اصلح الكراكة الهايلة اللى انت شايفها دى ببساطة ، لكن المسالة الصعبة اللى بتواجهنى فى حياتى هى انى معرفش اغسل ! فشلت . فشلت انى اتعلم غسل الملابس ، لكن باعرف اطبخ ، فى الاسبوع الماضى كنت باشتغل من عشرة مساء حتى السادسة صباحا ، اللى جابنى السد انى قريت حاجات عنه وانا فى مدرسة الصنايع ، السد بتاع البلد كلها، وفيه خبرة هايلة ، وايضا فيه سكن مجانى ، انا سميت للعمل هنا فى السد ، عارضنى ابى لانى حاكون بعيد ، وكانت دى أول مرة اتغرب فيها ٠ دلوقت ليه أصحاب كتير هنا ، فى الشهور الاربعة الاولى قاسيت من الوحدة ، وبعدين اتعودت ، معرفش اعوم لكن باروح حمام السباحة ، كنت حاغرق مرة ، وانا صغير عشان كده بخاف من الميه جدا ، الخوف يحطم فى الانسان أى رغبة فى التعلم ٠ فى عملى انا شجاع ، جميع الناس بيشهدوا لى بالشجاعة والجراة ، انا شخصيا معرفش اذا كنت شجاع والا جبان صدقنى . شفت هنا اخطار لا حصر لها ، أول يوم نزلت فيه النفق وقع خلفى مباشرة حجر ثلاثة متر مكعب ، كان بينى وبينه اقل من متر ، اصيب عدد من الناس اصابات جامدة ، اليوم الجميل عندى لما مايكونش فى المكن عطل ، انا بتعب نفسيا وجسديا لما أشوف آلة من الآلات واقفة ٠ دلوقت الشغل ماشى ، واقدر اقف معاكم شوية . الحياة العملية هنا خلاف حياتى الاخرى وانا فى المنيا ، اتعلمت هنا اشياء لا حصر لها مكن التخريم ، والكراكات التى لم تعرفها بلادنا من قبل ٠ البلدوزر ، تشغيل المدفع ، الكسارات ، كل هذا اقدر اصلحه واعرف عيوبه ، ومحاسنه وحفظته تماما ،

تعلمت من الروس كتـير جدا • أنا ادين لهـم ولاخلاصهم فى العمـل ، الناس دى ما بتخبيش عننا اى حاجة من معلوماتهم ناس مخلصة فى عملهم وقلبهم على الشغل وعلينا بصحيح .

كان املى اكون ضابط مهندس ، الامل ده ضاع ، وانا فى الاعدادية دخلت المطبخ وقلت لوالدى الذى كان يعطينى درس أنا رايح اشرب ، فتحت حلة كانت على الوابور واعطيت الوابور نفس علشـان البطاطا تستوى ، فانقلبت حلة المية اللى بتغلى عليه وحرقت بطنى قعدت فى السرير شهرين ، ودى غيرت مستقبلى ، وذاكرت ونجحت . لـكن جه مجموعى فى الاعدادية ضعيف مقدرتش اكمل ثانوى ، دخلت مدرسة الصنايع بالصدفة ،وانا مش عاجبنى المؤهل المتوسط ، حاعمل معادلة بعد ما يخلص السد ، وادخل كليه الهندسة بأى شكل .

عمرى ٢٢ سنة واسمى أنور حمزه من أسوان، تخرجت من المدارس الصـناعية الثانوية وسـافرت الى الاتحاد السوفييتى للتدريب ، قضيت عشر شهور فى فولجراد لأتدرب على تشغيل محطة الكهرباء فبعد انتهاء السـد لن يبقى فى المنطقة كلها غير العاملين فى محطة الكهرباء ، وهذه المحطة ستحتاج الى ٥٠٠ فنى ومهندس • العامل منا كان يرفض انه يرفع الكابل من الارض على أن ده من عمل العتالين ، انما كلنا تغيرنا دلوقت • الروسى مهما كان وضعه لا يترفع عن شىء مطلقا تعلمنا منهم ايضا احترام المواعيد والنظام • المرأة هناك لها شخصيتها • حاجة تانيه ، احنا لازم نبقى زى الجماعة الروس دول ،ليه مانوصلش لمستواهم انا شفت عامل روسى النفق انهار عليه ومارضاش يجرى ويسيب الكراكة وراه •• قعد يناضل بجنون واحنا نزعق فيه انه يخرج ويسيب الكراكة لكن مارضاش ، وقعد يناور بيها لكن الاحجار كانت بتتكوم عليه وتعجزه عن الحركة • فدق ملعقة الكراكة فى الارض وقعد ينط بيها لورا لغاية ما خرج من النفق • الروس خبراء فى كل حاجة حتى فى برشمة المسامير لازم نوصل لمستواهم • ده بامكاننا • وحننجز بناء السد ! ••

احنا اللى عاملين الطرق دى ، الغرب والشرق ، جوزى اشتغل فيها ، اسمى ثريا سرحان ، ، جوزى المهندس على سليم ، آنا آكتر واحدة شافت الويل هنا ، بقالى ٩ سنين فى أسوان ، وجوزى بيشتغل فى السد من أيام ما كان لجنة ابحاث ، كان السد خط بالجير الابيض على الارض كان جوزى بينزل يشتغل فى الطريق الاسفلت وأنا قاعدة لوحدى فى الشقة تحت الخزان ويرجع الساعة ١٢ بالليل ، كان بيدوب جوزين جزم فى الشهر ، وكانت الدبابة صوتها طول الليل يملأنى بالرعب ، كل بناتى دول اتولدوا فى أسوان ، كلهم أولاد أسوان، بيحبوا اسوان ، ويعتبروا القاهره شـــتمة ، وكان اهلى بيعتولى الهدوم فى طرد بالبوستة ، مكنتش تلاقى أو تقدر تشترى جلابيه من اسوان ، مفيش محلات ، ولا محل صرمانى ولا رفا ولا حتى عصير قصب .

مكنتش تلاقى مواصلات ، بين بيتنا وبين اسوان كان اتنين كيلو، كنا فى ليالى نبات من غير عشا ، ما نلاقيش عيش فى أسوان ، واحيانا ما نلاقيش مواصلات علشان نروح نشترى عيش ، الكلام ده من سبع تمان سنين ، كنت فى الاول خايبة جدا . معرفش القسم ابرة ولا اطبخ ، اتعلمت هنـا من النوبيين ودلوقت بعمل حـلويات وتورتة ، وبعدين خيطت هدوم العيال ، ودلوقت بافصل فساتين .

الزنقة علمت الواحدة كل حاجة ، أنا شفت السد حتة حتة . كنت بنزل اللنش وبروح السد واتابع الشغل ، ورحت الانفاق وهى بتتعمل وكانت الحجارة بتقع جنب رجلى ، رجل جوزى انكسرت مرة فى الانفاق .

قابلت وكيل وزارة السد وقلتله انا بنيت الســد مماكم ومع جوزى على ، ستات مصر مدلعين قوى . وانا كنت زيهم ، اختى فى مصر ماتعرفش تعمل منديل . جوزى مهندس فى السد ومعنى كده أنا اللى بتصرف فى كل حاجة خاصة باولادى ، أنا اللى بقابل الناظر والمدرسين أنا اللى بروح الدكتور لما العيال تعبا ، كنت لما بنزل مصر باحس انى طالعة من مغارة اسمها اسوان .

أســـوان كانت جبل وكانت ســـجن حقيقى ، دلوقت لا يمكن اسيب أسوان ، دلوقت المدرسة جنب البيت ، وساكنة فى عمارة مجانا فيها جهاز تكييف هواء والبيـاعين مالين الشـــوارع ، والجمعية

التعاونية جنبنـا وفيها كل حاجة . واســـوان بقى فيها بنزايون ، وسيدناوى وعمر افندى وكل حاجة . النوادى ، والجناين والسينما والتليفزيون ..

انا باحب المسرحيات والموسيقى ، وبعد ما شفت الويل فى اسوان فى الاول لا يمكن اسيبها دلوقت ، عندى وعند اولادى اسوان احسن بلد فى الدنيا احسن من مصر مائة مرة . المشروع كل يوم بيكبر وحياتنا بتكبر معاه . متعرفش بكرة حيكون فيه ايه احسن ؟ تعال بعد سنة واحدة وانت تشوف العجب .. !

خدمت فى اليمن قبل السد العالى ، دكتور هناك كمان ، اسمى عاطف عسل . سنى ٢٩ سنة ، طبيب ونقيب ، عالجنا اليمنيين وكنا نطلع فى عربية لعلاجهم فى القرى ، المستشفى بتاعنا هنا فى الســد فيه جميع الامكانيات ، الادوية الغير موجودة فى مصر موجودة عندنا ..

العيادة الخارجية لا تصرف الا الادوية الجاهزة مش زى بقية المستشفيات ، معندناش ادوية تركيب ولا امزجة . هنا يعالج المريض وكأنه فى عيادة خصوصى . مفيش أمراض معدية هنا رغم الاعــداد الضخمة ، بنوزع اقراص منع الحمل ببلاش .

فرق شاسع بين وكيل الوزراء اللى هنا فى السد واللى فى مصر ، هنا بيحلوا المشاكل وانت قاعد ، تشعر بالمسئولين هنا زى الأب والأخ أكثر منه راجل بينفذ القانون ، ودى بتنعكس على الكل مبتبقاش دى روح المسئولين بس ، كل الناس بتبقى كده ، بدليل هنا لما اضطر واعطى عامل مريض اجازة بيرفض يأخذ اجازة وبيروح الشغل ، فى القاهرة غير كده . فيها تمارض . حاجة غريبة هنا قوى ، عشـــان الحكاية دى تتمم ، الرك على اختيار الرجال والاشخاص ، المهم القدرة . الوحش يبقى كويس .. أى حاجة عاوز أشتريها للمســتشفى من ادوية . أدوات او اى حاجة فى الحال تيجى لى ، مفيش لجان ومفيش تعقيدات ..

أنا آمنت لولا الروح دى ما كانش ممكن الانجازات ودى تتعمل بالسرعة غير المعقولة .. احيانا احنا بننتقل لمساكن العمال وبنروح فى عربية الاسعاف فى الموقع لو حصل حاجة ، ويخطرونا .. وفى العاده المهندس بييجى مع العامل بتاعه عشـــــان يطمن عليه ، ودى بندى احساس ممتاز عند العمال ، أغلب المهندسين هنا شباب والشباب له روح تانية فيها حماس . ودى بتدفع العمال للعمل باستمرار . لابد كل الناس يكون عندهم رسالة توعية ، وكل فرد فينا جنب عمله ، دكتور موظف مهندس ضرورى يشتغل فى التوعية . مش ممكن الانسان يتغير من يوم وليلة . ولكن ممكن يتغير .

الإلـه القـديم

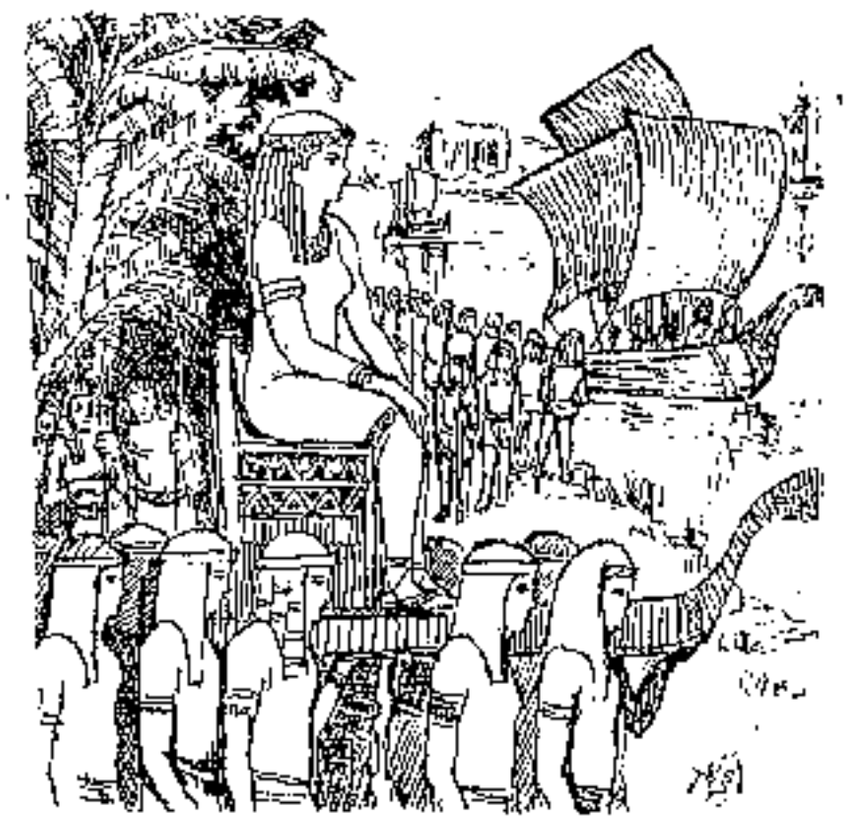

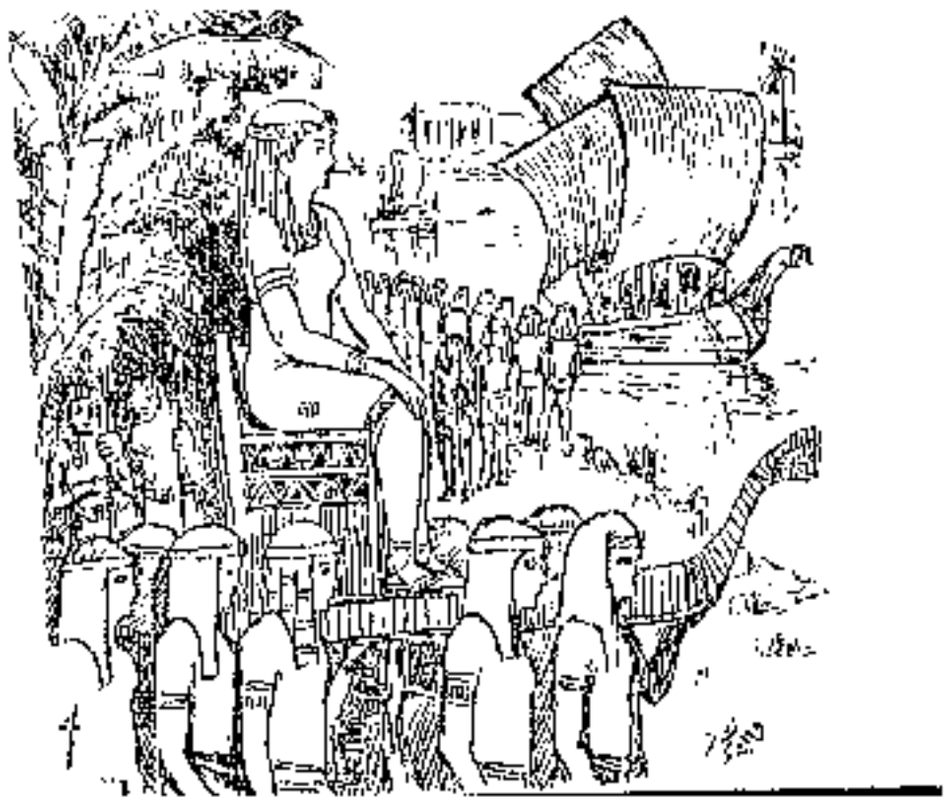

من فوق الربوة العالية كنا نشهد نهرين..

احدهما صاخب متمرد أبدا .. والثانى منخفض هادىء مطيع..

ومن العيون الحجرية الاثنتى عشر ، كانت المياه الزرقاء والبنية تلطم الاحجار ، والبوابات الحديدية والجدران الصخرية فى غضب حقيقى ، من اثر معركة حقيقية .. هى اغرب معركة دارت بين الانسان والمياه ..

فطيلة آلاف السنين كان النيل يجرى فى طريقه المعهود ، وفجأة جاء عدد من الناس والآلات .. وحفروا له طريقا جديدا مجاورا يمتد بضع كيلومترات ، وفى مايو ١٩٦٤ اجبروه على أن ينحنى فى هذا الطريق ..

وقاوم النهر بشدة .. واستبسل حراسه من الصخور .. ولكنه قاوم مقاومة الملوك الذين يفاجئون بانقلاب ، فيقاومون مقاومة ضعيفة مندهشة .. اما الحراس ، فانهم دخلوا المعركة بكل ثقلهم ، واختلطت اجسادهم الصخرية بدماء القتلى الحارة وهشمت الصخور عشرات من الآلات وسحقتها بحنق وسرعة ، ولكنها استسلمت فى النهاية وانزوت على جانبى الطريق مهشمة مليئة بالجراح ، منزوعة السلاح .. وتقدم الانسان فوق آلاته بعد ان اجبر النهر على أن يخضع له .

ولكن النهر بذل محاولة اخيرة ..

فعندما انتهى كل شىء بالحساب والآلة ، بالقلم والورقة ، بالصورة والكلمة ، وفتح الطريق امام النهر ، انطلق هادرا غاضبا محطما أمامه بضع آلات ، سحقها وقذفها بعيدا الى حراسه ، ثم انثنى ليقبض باصابعه على بعض الرجال الذين ظنوا واهمين أن النهر قد روض وانتهى أمره .. فحصرهم بين احضانه ، وانطلق بهم — مثلما فعل شمشون — نحو مصيره ..

ولأول مرة فى حياته الطويلة ، يستيقظ النهر ذات صباح ليجد

الطريق الى البحر مغلقا بجبال من الاحجار والرمال والصخور . عدوه اللدودة الصخور الجرانيتية ، سـيدة النهر التى لا تقهر ، ويرتفع الحاجز يوما بعد يوم ، ناميا فوق قلب النهر الذى اغتصبه ، حتى لا يستطيع النهر أن يناله ، فيلطمه بلا أمل ، وينحول عنه هـادرا يبحث عن طريق آخر . طريق جديد . لا يعرفه ، طريق صنعه له الانسان .. ولأول مرة تعبر مياهه ارضا لم يخترها هو ..

ومنذ تلك اللحظة التى غابت فيها الشمس عنه ، داخل الانفاق. تلك الدقائق المرعبة من الظلمة والاسمنت والصخور . تلك الدقائق التى يلطم فيها جدران النفق فى حنـق ، مجتازا بواباته التى تهرس جسده ، مصطدما بقواعد التوربينات .. منذ تلك اللحظة القصيرة المرعبة من الظلام المفاجىء بعد رحلة شمس طويلة مرحة . نجده ينطلق حزينا مجروحا مكسورا ، بلا حراس ، هادئا مستكينا تحت عـدد لا حصر له من الكبارى الحديدية والخشبية ، وتتسرب قوته خلال آلاف القنوات التى يلعب فيها الصبية عرايا ، ويخترق المدن بلاصـوت تسبح فوقه قوارب العشاق ، وتترامى عليه عقود الياسمين وقشور البرتقال .. حتى يدفن نفسه فى اعماق البحر الواسع ..

لقد دقوا فى قلبه المسامير الصخرية وقذفوا فى جوفه أطنانا من الاسمنت والرمال . وضفروا له تاجا من الصلب والصخور ..

***

ولكنه ليس هكذا يبدأ ..

فمنذ اللحظات الاولى لحياته يولد النهر صاخبا عنيفا ، فهو يولد من ضجة وهدير ،وجزء من مائة أبيض لامع بالزرقة ملىء بالحياة يدور بعنف حول جزيرة صخرية صغيرة ، ومن أسفل تدور بجنون رغوة زرقاء خضراء تزيد منطلقة الى المجهول .. هكذا يولد النهر .. وهكذا يظل يولد كل يوم وأبدا .. وهكذا ينطلق ، مسرعا الى البحر رسول افريقيا العظيم و « .. أعظم مجرى على وجه الارض ، واكثرها وفرة .. » من أكبر بحيرة فى نصف الكرة الشرقى ، مارا عبر آلاف الاميال . باعلى الجبال وأكبر مدن القارة ، وكافة أنواع الطير والحيوان التى تحتوى عليها الجنة .. !

ولم يكن أحد يعرف من اين يولد .. وطيلة اربعة الاف سنة كان الناس يبحثون عبثا عن منبعه .. وكان الفراعنة يعتقدون انه

ينبع من اربعة منابع تفديه عند أسوان .. وذات يوم ، منذ سبعين عاما فقط ، اكتشف ان النيل يبدأ مسيرته بشلالات ريبون الهائلة على مقربة من خط الاستواء .

لقد اثارت اسطورة المنبع هذه خيال المغامرين ، فانطلقوا يبحثون بالحاح عن لحظة ميلاده . واصبحت رحلاتهم الطويلة الى قلب القارة الافريقية هى الاخرى اسطورة امتزجت بالنهر ..

***

ان النهر لا يولد من المجهول ..

فهناك جسر الى الشمس .. سيل من الامطار يكون بين الشمس والنهر معبرا أزليا ..

ومثلما كان فرعون الها ابن اله .. فان النيل ايضا اصبح الها ابن اله ..

اصبح ابن الشمس .. !

بل صار « حابى » .. أبو الآلهة ..

حابى الاعظم .. ان فاضت مياهه ..

وحابى الاصغر .. ان غاضت ..

ذلك انه ، ككل الآلهة .. كانت له نزوات هائلة .. !

فكثيرا ما كان يفيض فيغرق الاراضى وينشر الخراب والدمار ..

او يفيض فتجف الاراضى .. وتنتشر المجاعات والاوبئة ..

ومنذ بضعة آلاف من السنين ، كان كاهن معبد طيبة ، بعد أن يتسلم رسالة خاصة من كاهن معبد الفانتين ، يقف فى صحن المعبد ، تحيطه هالة من البخور ، ويقرأ على الفلاحين المنتظرين بقلق..

« ان فرعون امر النيل أن يفيض ولقد أطاعه النهر ، فى اللحظة الخطرة حينما كاد أن يفقد نفسه فى العالم الآخر .. »

وبعد ذلك بآلاف أخرى ، كتب عمر بن الخطاب رسالة الى عمرو ابن العاص وطلب منه أن يلقيها فى النيل الذى تأخر فى الفيضان ..

والرسالة تقول : « من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، الى نيل

مصر • أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا نجر ، وإن ، عدوته الواحد القهار هو الذى يجـــريك ، فنسأل الله الواحد ا: ، ويرتفع ، حتى يجريك •• »

ويقول المقريزى ان عمرو بن العاص ألقى بالخطاب فى هـادرا فما لبث أن فاض فى اليوم التالى •• صنعه له

وكان الاقباط يلقون فى النيـــل بتابوت من خشب يضم اصبع من أصابع الشهداء المسيحيين فى اليوم النامن من شهر بشنانق. ولا يزيد النيل فى كل سنة الا اذا أقيم هذا العيد ••

انه لتاريخ حـافل حقـــا بالمآسى والأزمات ذلك الذى يمتد منذ السنوات السبع العجاف الشهيرة ••

فعلى كثرة ماعرفت مصر منذ البداية من فترات القحط والمجاعات ، لم تمر بها فترة مثل تلك السنوات السبع ، وسبع أخرى مثلها فى العصر الاسلامى •• فى زمن المستنصر بالله ، من ٤٥٧ هـ الى ٤٦٤ هـ •

وقد وصف صاحب النجوم الزاهرة هذه المحنة . فقال : « بلغ الغلاء العظيم بمصر منتهى شدته الذى لم يسمع مثله فى الدهور من عهد يوسف الصديق عليه السلام ، واشتد القحط والوباء سبع سنين متوالية حتى أكل أهلهـا الجيف والميتات وأفنيت الدواب وبيـع الكلب بخمسة دنانير والهر بثلاثة دنانير • ولم يبق لخليفة مصر سوى ثلاثة أفراس بعد العدد الكثير •• ونزل الوزير يوما عن بغلته فغفل الغلام عنها لضـــعفه من الجوع فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها • فأخذوا وصلبوا فأصبحوا وقد أكلهم الناس ولم يبق الا عظامهم • وظهر على رجل انه كان يقتل الصبيان والنساء ويبيع لحومهم،ويدفن رءوسهم وأطرافهم فقتل • وبيعت البيضة بدينار ، وبلغ اردب القمح مائة دينار ثم عدم أصلا •• » •

وكان الناس يقفون فى الطرقات فيقتلون من يظفرون به ، ويأخذون ماله ، حتى أن امرأة قبض عليهـا وأدخلت الى منزل فيه سكاكين وآثار دماء وقطع أهله شرائح من أفخاذها لأنها كانت سمينة ! •

وبعد ذلك بثلثمائة عام بلغت الزيادة فى النهر ٢٤ ذراعا ، وغرقت بساتين جزيرة الفيـل وطريق شبرا والمنيـا ، وغرقت منازل الحسينية والروضة وبولاق • وخرج الناس الى الصحراء ودعوا الله تعالى بهبوطه •• فهبط الماء أربع أصابع ثم وقع بعد ذلك وباء رهيب ••

وقد كان فيضان هذا العام أقل الفيضانات التى رأتها مصر منذ أربعين عاما ·· وكان يمكن أن تتعرض البلاد لخطر المجاعة ·· وتتعرض الارض للعطش لولا المياه التى حجزها السد منذ مايو ١٩٦٤ ··

كما أن فيضان عام ١٩٦٤ كان أخطر فيضان شهدته البلاد منذ خمسة وعشرين عاما · وكان من الممكن أن تغرق شطئان النيل ·· ومعها ذلك الشريط الأخضر الضيق حتى أسيوط · لولا الحائط العظيم بتاجه من الصلب والصخور ، الذى نهض شـــامخا وســـط النيل فى مايو ١٩٦٤ ، ليطوى الى الأبد صفحة الفيضان الدامية من تاريخ بلادنا ··

***

لقد كان الكهنة هم مهندسو مصر القديمة .. وكانوا يحتفظون بمقاييس النيل داخل المعابد ، وعليها حراسة قوية ، لا يقرأها غيرهم ··

وعلى أساس التقارير التى كانوا يرفعونها الى فرعون ،كان هذا يقدر الضرائب الجديدة على الارض طبقا لحالة الفيضان القادمة ··

ان أول مقياس للنيل على حدود مصر مازال بالامكان مشاهدته فى الفانتين ·· وبالقرب منه يربض السد العالى الآن بأنفاقه الستة متحكما فى النيل كما لم يتحـــكم فيه شىء طوال تاريخه السحيق ، وبدلا من الكاهن ، سيقف المهندس المصرى يحســب ويراقب ، ويفتح ويغلق ، ويرسل الخير من أسوان الى مصر كلهـــا دون مراسيم كهنوتية ودون ضرائب جديدة ، ودون صـــلاة أو تضحيات أو ثيران مذبوحة أو عذارى يلقون فى الماء ، فبدلا من ذلك وضع الرجال الصخر والحديد والانفاق والبوابات ·· ليأمروا النهر الذى سيطيعهم دون مقـــاومة ·· لكن صدى أغنية الحب القديمة التى كانت تتردد عبر شواطئه الفرحة ، لن يخفت أبدا ··

لأن قاربى مضىء فوق الماء
ورأسى مكللة بالزهور ··
هكذا أسرع الى أعمدة المعبد
والى عديد من الساعات السعيدة
فالاله العظيم بتاح
جعل النهر يأتى فى موعده
وجعل حبيبتى تأتى الى هذه الليلة
بفرح كبير
وغدا ·· فى ضوء القمر ، سأراها أجمل !

- ٢ -

والحق أن انسان مصر قد فكر منذ القديم فى محاولة السيطرة على ماء النيل ، دون أن يتركه تماما للآلهة ٠ !

فقد كانت هناك محاولات لاقامة الجسور فى عهد الملك مينا ، أى منذ أربعين قرنا قبل بدء التاريخ الميلادى ٠٠

ودلت أقدم الحفريات على أن المصريين القدماء تنبهوا الى الاستفادة الى أقصى ماتسمح به تجاربهم — من مياه الفيضان ، فقد كان الفيضان يغير على جانبى الوادى ، ويظلون هم فى قراهم المرتفعة الى أن ينحسر الماء فيزرعوا الأراضى المنبسطة ، ويقيموا السدود حول الوديان والفجوات لكى ينتفعوا بمائها فى زرع محصول آخر ٠٠ وهداهم تفكيرهم حينئذ الى اختراع الشادوف ثم الساقية ٠٠

واستنبط المصريون نظام الرى الحوضى منذ آلاف السنين ، وفيه يترك ماء النهر فى فصل الفيضان ليغطى أراضى الحياض بعمق متر ونصف فى المتوسط ولمدة ٤٥ يوما ، حتى اذا ما انخفض منسوب الماء فى النهر ، عادت مياه الحياض الى مجراه بعد أن تكون الارض قد روبت استعدادا لزمأ طويل ، وبعد أن يكون الغرين الذى حمله النهر من هضاب الحبشة قد أمد التربة بخصب جديد ، يعوضها عما فقدته فى العام السابق ٠٠

وكانت الاراضى تنقسم الى أحواض تفصل بينها سدود ترابية تمتد بين جسر النهر وحافة الصحراء ، وكانت تغذى هذه الاحواض ترع يمدها النيل بالماء فى زمن الفيضان ، فاذا جاء الجفاف وهبط منسوب النهر أصبحت مآخذ هذه الترع أعلى من منسوب النهر فلا يصل اليها الماء ٠ ولم تكن هناك قناطر تنظم العلاقة بين النهر والترع اللهم الا سدود من الحجارة تزال سنويا حينما يراد لمياه الفيضان أن تدخل الاحواض ٠

وكان منظر البلاد فى موسم الفيضان أشبه ببحيرة عظيمة فى قلب الصحراء ، متوسط عمقها متر ونصف ، وتقطعها حوائط سميكة من التراب ، وفى وسط هذا الخضم تقوم القرى ، وكأنها الجزر فوق تلال خلقتها الطبيعة أو صنعها الانسان ، ومن هنا كانت القرية المصرية منذ فجر تاريخها كتلة متراصة لايفصل بين بيوت فلاحيها سوى الضيق من الشوارع والحارات ، وكانت القوارب هى وسيلة النقل بين القرى فى

موسم الفيضان · ويتبطل الفلاحون فى هذا الموسم ، فاذا ماجفت الارض عادوا الى العـمل ، وليس لهم الا محصـــول واحد فى السنة أغلبه من الحبوب ·

ومنذ عهد محمد على بدأت محاولة جديدة تمخضت عن السياسة المائية التى تعرف بالرى المستديم · وكانت الخطوة الأولى هى حفر الترع الصيفية ، وهى ترع عميقة بحيث لاتجرى بمياه الفيضان وحدها بل وبمياه الصيف أيضـا ، وهى فى هـــذا تختلف عن الترع النيلية التى لا تجرى بالماء الا حينما ترتفع مناسيب النهر العظيم ، ولابد أن تظل لهذه الترع أعماقها ، اذا أريد منها أن تؤدى الغاية التى أنشئت من اجلها ، وهو أمر شاق فمياه الفيضان غنية بالرواسب تلقى بها فى قاع الترع فيرتفع القاع ، ويتطلب تطهيرا عقب كل فيضان ، يعمـــل فيه ـ بالسخرة ـ أكثر من نصف مليون فلاح لمدة شهرين فى كل سنة·· بلا أجر ·· وبعيدا عن قراهم وأهاليهم ·

هكذا ولدت ترعة الابراهيمية التى تروى اليوم مليون فـدان · وتطور الامر بعد ذلك الى شبكة محكمة من الترع تقابلها شبكة مماثلة من قنوات الصرف ·

وتطلب النظام الجديد اقامة القناطر والخزانات على نهر النيل لرفع منسوب المياه الى مستوى القنوات من جهة ولتخزين كمية ماء من جهة اخرى ·

وبدات سـلسلة مشروعات تخزين المياه ورفعها بانشـــاء القناطر الخيرية ·

ففى عام ١٨٣٣ اصدر محمد على أوامره الى مهندسه الفرنسى لينان دى بلفو بنزع أحجار الاهرام لاستخدامها فى بناء القناطر · ! وكان من المحتمل ان تفقد مصر اهرامها لولا ان وفق المهندس الى اقناع تاجر الدخان بأن اقتلاع الاحجار الجيدة من محاجرها أقل نفقات من نزع احجار الاهرام ··

وبدات سلسـلة القناطر تنتشر على نهر النيل من أسوان الى البحر الأبيض ··

ثم اتضح ان المياه التى تجرى فى النيل لا تكفى لبرنامج التحول الى الرى الدائم ·· وبدأ البحث عن مكان للتخزين ·· وظهرت فكرة

استخدام النهر نفسه كخزان باقامة سد يحجز المياه أمامه فلا تنفذ منه الا بالقدر الكافى للحاجة ..

ومنذ تلك اللحظة لم يعرف النهر سلاما ..

ففى ١٩٠٢ تم انشاء سد اسوان ، أول سد من نوعه فى العالم ، كما كان يوصف وقتها . وكانت سعة التخزين به مليار متر مكعب اصبحت بعد التعلية الاولى عام ١٩١٢ الى مليارين ونصف مليار . ثم اصبحت بعد التعلية الثانية فى عام ١٩٣٣ تزيد على ٥ مليار متر مكعب.

وفى عام ١٩٤٥ ، مع ازدياد حاجة البلاد الى المياه ، جرى التفكير فى تعلية الخزان للمرة الثالثة . ولكن الفكرة استبعدت لصعوبتها ..

وفى عام ١٩٤٨ ، وضعت خطة لانشاء عده خزانات للتخزين المستمر والتخزين السنوى كلها خارج حدود مصر .. تقام بامواننا ثم نصبح بعدها تحت رحمة الظروف . فضلا عن انها كانت قاصرة على تخزين المياه الصافية من الطمى فقط . والتى لا يتجاوز مجموعها ١٤٪ من ايراد النهر الكلى .. كان لابد من التحكم الكامل فى مياه النهر ..

ويلزم لذلك تخزين طويل الامد وبالتالى سعة هائلة تضمن استقبال الزيادة فى سنين عالية متتالية ، وتضمن وجود رصيد مخزون من المياه لسد النقص فى السنين الواطية أى خلق فيضان صناعى ذى ايراد ثابت معلوم ..

وكان المطلوب هو ان نعترض المجرى بجبل هائل يقف فى وجه المياه .. سد عال يسع ١٥٧ مليار متر مكعب من الماء تستوعب الفيضان كله والطمى . !

***

لقد مضى الآن قرابة العامين على سد مجرى النيل .. ولا زالت أمامنا سنوات حتى ينتهى البناء تماما فى السد ..

ان ٢ مليون فدان تنتظر الخصب والمياه لتتحول الى أراض زراعية صالحة تماما للزراعة . ولكننا تمكنا فى العامين المنصرمين من ان نحول ٥٠٠ الف فدان من أراضى الحياض الى رى دائم ، وبعد أن كانت تزرع مرة واحدة أصبحت تزرع ثلاث مرات تماما كأراضى الوجه البحرى .

وقد أستغرقت عمليات الحفر ٨ أمثال المسافة بين البحر الابيض واسوان ، فى الصعيد .. بدأت بـ ١٥ الف عامل عام ٦٣ وأنتهت بـ ٤٠ الف عامل يعملون يوميا فى المحافظات ..

لقد دبت الحياه فى الوادى الضيق الذى تحده تلال تقبض عليه قبضة فكى كلب صيد على الفريسة ، كما وصف كاتبنا الكبير يحيى حقى الصعيد فى كتابه « دماء وطين » .

وفى هذا الكتاب أورد يحيى حقى صورة رائعة لأهل الصعيد ..

كتب يقول : « ... ووصلت الى آذاننا تلك المقطوعات الحزينة العميقة ، تنبعث بين أكوام الحجارة حيث يضطجع الفعلة ـ وجلهم من أبناء الصعيد ـ حول النار يصطلون اذا كان الوقت شتاء ، أو يتنسمون الهواء العليل اذا كان صيفا ، ويرددون أغانى لهم يتذاكرون بها وطنهم واهلهم واحبابهم .. وهم ساهمون برغم تعب النهار .. كأنما تؤرقهم الذكرى ..

« هؤلاء هم الصعايدة : قوم جاءوا من بلاد نائية ، حرها شديد ، وزرعها قليل ، تغمر مياه النيل أراضيهم ـ الحياض كل عام ـ فيبطل العمل ويحلو الاجتماع والسهر على جسور النيل . ثم تتخطفهم الهجرة الى القاهرة والاسكندرية وغيرهما من مدن مصر ، فيترك الأب ابناءه ، وزوجته ، والابن أمه وأباه ، والعاشق حبيبته ، طلبا للقمة العيش .. حياة محفوفة بالشقاء والترحال والفراق تلهب احساسهم وتذكى عواطفهم .. »

... صفحة طواها السد من حياة الصعيد .. لتبدأ صفحة جديدة ، يتنفس فيها الوادى الضيق الحياة .. ويعمل فيها الرجال السمر طول الوقت .. لا يهاجرون ولايقطعون الطرق .. ولا ينوحون .. !

- ٣ -

ان تاريخ محاولة السيطرة على ماء النيل هو نفس تاريخ مصر السياسى . ! مثلما هو تاريخ النهر ذاته ..

لقد ربط النيل بين مصر بوابة افريقيا الذهبية الشمالية ، وبين جنوبها الاسطورى الدامى ،وبالمثل أيضا ربط بين شعبها المتناثر على طول الشريط الاخضر الضيق الذى يفصل الصحراء عن المياه .

ومنذ توحدت مصر منذ أكثر من خمسة الآف سنة على يد القائد الفرعونى مينا ، لم يكف فراعنتها أبدا عن وضع زهرة اللوتس المقدسة فوق تيجانهم الموحدة بين الشمال والجنوب ، دلالة على دور النيل الفعال فى ربط الشمال بالجنوب .

لقد خلق النيل فى مصر أول نظام حكومى فى العالم القديم ، بيروقراطية ذكية ، تحكم الوادى كله من طريق مئات من الكتبة والكهنة وجباة الضرائب .

وفى مواسم تحاريقه جمع فرعون الفلاحين ليبنوا الهرم .. وفى مواسم فيضانه جمع الكهنة الفلاحين ليصلوا له ويقدموا مزيدا من الضرائب .

ومثلما ارتبط مصير الفلاح المصرى بالنيل ، كذلك ارتبط مصير الصياد الأفريقى بالنهر ..

ومثلما هبطت سفن الغزاة فى ابى قير ، كذلك صعدت سفنهم الى أعالى النيل تحمل الموت والمرض .

وعرف النهر أكثر المآسى وحشية ، وامتزج ماؤه بدماء الملايين من البشر ، عبر المستنقعات والغابات والسهوب ، وانهالت فيه ضربات الخناجر المسمومة والسياط التركية والرصاص الانجليزى ، الذى انطلق من فوق قمم جبال القمر حتى كوبرى عباس فى القاهرة عندما حاصر الانجليز المتظاهرين المصريين وفتحوا الكوبرى عليهم ، وامطروهم بالرصاص ..

وعلى شاطئه الافريقى الغربى كانت تدور الى عهد قريب ، اكبر عملية بيع بشرية .. فمن هناك انطلق النخاسون من كل شعب ، يصطادون الزنوج ، ويربطونهم بالحبال ويسوقونهم بالمسدسات الى السفن الراسية على ساحل الذهب أو ساحل العاج ، التى تحملهم الى أوربا وأمريكا والى كل جزء من العالم « المحتضر » .

وطوال قرون طويلة عاش الفلاح المصرى بنفس الطريقة التى عاش بها أجداده .. فهو مازال يستعمل نفس الادوات مثل المحراث والشادوف والنورج .. ومازال يحسب مواعيد البذر ، والحرث والرى بنفس الطريقة التى كان الفلاح القديم يحسب بها .. لكن فلاح مصر الطيب البسيط لم يكن دائما طيبا وبسيطا أمام الشر والعنف ، ففى عام ٢٣٥٠ق.م . قامت أول ثورة فى التاريخ البشرى كله .. قامت هنا على ضفاف النيل ضد الكهنة والاثرياء .. وصاح الفقراء يومها : « فلتسقط السلطة » !

وطوال بضعة آلاف سنة ، عبر اجيال من المهانة والعذاب والسخرة منذ الهرم الأكبر حتى فاروق سليل محمد على المغامر ، ظلت مصر تبحث عن قلبها الممزق .. وعلى طول شاطىء النيل المصرى من وادى حلفا حتى الدلتا ناح الفلاحون على الناى ليلا .. وناحت الفلاحات نهارا وهن يهرولن خلف ابنائهن الذين اخذهم الاتراك او محمد على او الانجليز ليحاربوا لهم .. واحترقت السواعد العارية بلهيب الشمس وهى تبنى بالسخرة .. وتوهجت العيون بلهيب البغضاء والغضب وهى تتراجع أمام مهندسى الانجليز وعساكرهم .. وحمل النوبيون السمر اشياءهم القليلة وغادروا قراهم التى دهمتها مياه الخزان ، ليبحثوا عن ماوى فى ركن من أركان البلد التى انكرتهم.

.. حتى عثرت مصر على أوزيريس ذات ليلة ، فاشعلت اول ثورة اجتماعية معاصرة فى افريقيا ، ثورة يوليو ١٩٥٢ ..

وبدات صفحة جديدة فى حياة النهر العظيم .

ومثلما طرد الغزاة من الاسماعيلية وبورسعيد .. عادت بهم سفنهم من كل مكان على طول الشاطىء الأسمر ..

وعندما تلفت المصريون ليبنوا حياة جديدة .. لم يجدوا غير النيل يلجئون اليه .. ولكن ..

ولكن جريدة مثل الفاينانشيال تايمز الانجليزية كانت لا تزال تستطيع أن تقول بكل صفاقة : « لو توخت مصر جانب الحكمة لركزت اهتمامها فى دراسة برامجها السياسية والاقتصادية دراسة شاملة لترى ما اذا كان من الممكن تنسيق هذه البرامج بحيث تتمشى مع مقترحات الغرب .. فاذا ما اظهرت مصر انها على استعداد لأن تفعل ذلك لن يجد الغرب مانعا من منحها كل معونة ممكنة » ..

وعندما رفضت مصر التبعية ، واعلن دالاس سحب العرض الامريكى للمساهمة فى السد لأن : « التطورات التى شهدتها الشهور السبعة الاخيرة لم تكن ملائمة لنجاح المشروع » !

وفى وسط النهر ـ واصلا بين ضفتيه ـ وبالقرب من المكان الذى اقام فيه المصريون منذ اربعة آلاف سنة تمثالا لاله الاخصاب

والخلق ، حارسا للنيل ، انتصب حارس جديد .. هرم رابع .. هو اكبر هرم فى التاريخ .

وخلق الهرم الجديد روحا جديدة فى عصر السياسة الملتهبة والكتل .. فوق جسده الجرانيتى ، ترك العالم صراعه الدامى ، واخذ آلات بنائه ليشيد ويعمر وينفذ . ومثلما قدم أبناء الشمال للسد عمرهم ودمهم ، اعطاهم النيل تجربة حياة جديدة وكنزا من الحكمة التى يحتفظ بها فى اعماقه . ولاول مرة فى تاريخ مصر يصطلح المصريون مع الأجانب ويعملون معهم كتفا لكتف ، وقلبا لقلب ، بمشاعر الحب والثقة والأمل ، « بجبارات » على الشاطىء تنقل الرجال والرمال والصخور ... دون سخرة أو سوط أو تروط !

ومثلما غير الشعب المصرى طريقه ليبنى حياة جديدة ، غير النهر طريقه القديم واختار طريقا جديدا ..

ليس هذا فحسب ..

بل ان مياهه ستعرف جسد أرض جديدة ، لم يلمسها الالم منذ خلقت ، بكر عذراء ، سوف ترتعش شفاهها المنتظرة حينما تتلقى قبلاته ، فينتفخ جسدها المتعطش للحياة حينما تندفع مياهه الحمراء اليها .. وهناك ستلد الأرض حياة جديدة ورجالا جددا ، هناك فى ذلك الزواج الذى طال انتظاره آلاف السنين ستزهر الارض لبنا وعسلا وخيرا .. وهناك ولأول مرة فى تاريخ مصر كلها يمتلك الفلاح أرض مصر الجديدة ، بعد أن حررها أوزيريس ، هذه الأرض ستمتلكها مصر كلها . لا بضعة مئات ، لأنها ثمرة نضال الشعب كله وثمن انتصاره وثمن انتظاره الطويل ..

وعلى ضفاف النهر الجديد سوف يختفى الظلام ، لأن روحه الجديدة سوف تمسح الظلام من القرى مثلما مسحت ايزيس دموعها بكف حوريس ابنها ومحررها .. وسوف يتحرك النهر من اسوان الى الاسكندرية ، من مدينة الفراعنة القديمة الى البحر الأبيض ، فى مهرجان من الضوء والخضرة والفرح .

أبناء الشمال

- ١ -

كان موعدنا معه فى الثامنة مساء بمنزله ..

ومنذ الخامسة ونحن نتابع الساعات والدقائق فى لهفة ..

فهى المرة الاولى التى تلتقى بها باحد أبناء الشمال فى منزله !

فمنذ اللحظة الاولى التى وصلنا فيها الى اسوان ونحن نلقاهم فى كل مكان .. رايناهم لأول مرة فى شوارع اسوان نشطين مسرعين .. وتعلمنا كيف نفرق بينهم وبين السياح .. من مظهر النشـــاط البادى عليهم .. ومن اناقتهم .. !

فهم يقودون سياراتهم بسرعة ويتحركون بسرعة .. بحماسة من يعرف أنه هنا لوقت محدد .. وأنه سيغادر هذا المكان بعد أن تنتهى مهمته .. ومهمته بالتحـديد هى أن يلغى مهمته .. ! اى يعد من المصريين من يحل محله ..

وليس سرا ان عددا كبيرا من الخبراء الروس قد عاد الى بلاده قبل الوقت المحدد .. فقد تعلم المصريون بسرعـة .. فأعلن الروس انتهاء مهمتهم قبل الموعد رغم ما تسببه عودتهم المبكرة من ارتباك فى اقتصاد بلادهم الذى يقوم على خطط محددة بالسنة والشهر واليوم..

والمفاجأة التى واجهتنا بالفعل ، هى اناقة الشاب الروسى الذى تقابله فى المدينـة بعد الظهر الاحـذية المدببة ، والبنطلونات الضـيقة والقمصان الملونة .. !

اما فى العمل .. فى السـد .. فمن الصعب أن تميز بين الروس والمصريين .. فى البداية كنا نعتمد على غطاء رأس حديدى يرتديه بعضهم . ثم تبينا أن معظمهم كف عن استعماله .

واحيانا كنـا نتعرف عليهم من الترامس الكبيرة التى يحملونها على اكتافهم عند انصرافهم او مجيئهم ..

ولكن التعرف عليهم كان صعبا دائما بسبب ملابس العمل التى لا تفرق بينهم وبين المصريين . وعندما يعمل الروس فهم يعملون . فشلنا تماما فى أن « ندردش » مع احد منهم اثناء العمل . وظننا فى البداية أنهم متحفظون لا يحبون الحديث مع المصريين . ثم تبينا بعد قليل أن السبب هو « رابونى » .. اى العمل .

لهذا كان لقاء الليلة مثيرا حقا .

***

اقلنا الاتوبيس من الموقع الى كيما .. المدينة السكنية الضخمة التى يسكن فيها عدد كبير من الروس ..

المنازل عبارة عن عمارات ضخمة فى صفوف .. كل صف مكون من اربع عمارات تفصلها حديقة .. وعلى أبواب هذه العمارات مصابيح كهربائية مضاءة .. وتحتها ــ فى مدخل كل منزل ــ تجمعت حلقة من السيدات الروسيات يترترن ..

وعثرنا على مسكن « يفجينى باركوفسكى » بسهولة .. وعندما ضغطنا جرس بابه فتح لنا على الفور ..

كان باركوفسكى يرتدى قميصا من تلك القمصان التى تاتى من غزة وتباع فى شوارع القاهرة وتفسل ولا تكوى ! وكان بنطلونه نسبقا وحذاؤه مدببا . وذلك كله رغم انه جاوز الاربعين وامتلأ شعر راسه بالبياض .. !

وقال لنا مهندس ادارة التخطيط فى هيئة السد العالى : باجلستا ! ..

***

ولمدة ساعتين لم نكن نكف عن الحديث الا لنجيل أبصارنا فى أنحاء الشقة الصغيرة الانيقة نتأمل محتوياتها ثم نعود الى باركوفسكى بسؤال جديد ..

كان أثاث الشقة شديد البساطة : مائدة من الصاج فى الصالة تحيط بها عدة مقاعد . سرير فى حجرة النوم وتسريحة صغيرة . الصالة بها ثلاجة أيديال .. والمطبخ به بوتاجاز .. والحمام به سخان ضخم .. نسينا شيئا آخر فى حجرة النوم .. قفازين كبيرين للملاكمة

يتدليان من المشجب وأسفلهما على الارض قضيب حديد من قضبان رفع الاثقال التى لم نرها منذ تركنا المدارس .. !

وفى كل منازل الروس التى دخلناها بعد ذلك ، كان قفازا الملاكمة وقضيب الحديد ، هما اول شىء تقع عليه عيوننا ..

وانهلنا على باركوفسكى بالاسئلة .. وهو لا يكف عن الابتسام والضحك .. ضحكات طويلة صافية يحمر لها وجهه .. وتبرز بها ثلاث اسنان ذهبية فى فمه ..

ما الذى جاء به من بلاده .. من درجة حرارة تهبط عن الصفر الى درجة حرارة لا تهبط عن الأربعين وتصل احيانا ـ كما لمسنا بأنفسنا ـ الى الستين ..

والاكثر من هذا أن باركوفسكى جدد عقده مرة . وينوى أن يجدده مرة ثانية ..

وفى بساطة تامة ـ دون خطب ودون مجاملات دبلوماسية ـ تكلم الرجل ..

قال ان مصر كانت بالنسبة له دائما أسطورة قرأ عنها الكثير .. كانت رؤيتها حلما يداعبه دائما .. ولم يكن من الممكن أن يتحقق هذا الحلم أيام فاروق ..

وقال انه مهندس .. ولكل شخص يريد ان يتقدم فى مهنته ، يبحث دائما عن الخبرة الجديدة . والسد العالى فرصة لا تعوض بالنسبة لأى مهندس .. فهو مجهز على مستوى عال . بأحدث الآلات وأفضل الاخصائيين فى فروع جديدة . ثم هناك تجربة التلبيس بالرمال وهو تكتيك جديد يطبق هنا لاول مرة على نطاق واسع ..

وقال انه انسان سوفييتى .. والانسان السوفييتى يعتبر بناء الاشتراكية فى أى مكان فى العالم قضيته الخاصة .

كان الاحساس الذى ينتقل الينا عبر مائدة صفت عليها زجاجات البيرة بجوار كوم من الكتب والمجلات ، هو احساس بالرضا عن النفس .

احساس الانسان الذى قام بواجبه نحو بلاده ، ونحو اخوته فى الانسانية ، ونحو نفسه ..

احساس ابن الاشتراكية الذى يتسع احساسه بالوطن فيشمل العالم كله ..

ولكن الصورة تختلف قليلا عند كبار الخبراء .

وقد تحدثنا مع الأربعة الروس الكبار فى السد .

الكسندروف كبير الخبراء ، ورادتشنكو نائبه الذى قابلناه قبل أن يعود الى بلاده نهائيا بأيام .. ثم سميرنوف نائبه الجديد .. وأخيرا ماليشيف ، كبير المصممين .

والظاهرة المشتركة بين كافة الخبراء الروس الكبار .. هى انهم جميعا اشتركوا فى الحرب .. وفى بناء اضخم المشروعات المائية والكهربائية فى الاتحاد السوفييتى .. ثم فى البلاد الاجنبية .

ان تاريخ أى واحد منهم هو نفس تاريخ الاتحاد السوفييتى .. البناء ثم الحرب .. العودة الى التعمير .. مساعدة البلاد الصديقة ..

ولذلك فالخبراء الروس الكبار مقاتلون ..

تشعر بهذا وانت تجلس امام الكسندروف القصير المتين .. ذى الضحكة الهادئة التى تنفرج دائما عن سنة ذهبية .. والذى يتحدث بثقة واعتداد وبساطة ..

وتشعر به أمام رادتشنكو ذى العينين الزرقاوين الذكيتين . وأمام سميرنوف بوجهه الممتلىء الطيب وشعره الأبيض .. وماليشيف بوجهه الجامد القسمات الذى لا يشى بشىء من مشاعره .. ورادتشنكو هو أطولهم اقامة فى اسوان .

جاء لاول مرة فى نهاية عام ٥٩ مع اول مجموعة من الخبراء .. وكان عددهم ثمانية . عادوا جميعا واحدا بعد الآخر .. وكان هو آخر من بقى منهم حتى عاد بعد أن قضى ست سنوات فى المدينة التاريخية .

ان الشىء الذى يحسه باركوفسكى ويحركه عاطفيا ويجعله ـ الى جانب حماسه للمكان وللتجربة وللحافز المادى ـ يجدد عقده للبقاء فى اسوان .. يدركه أمثال رادتشكنو بشكل واع محدد ..

ولا زلنا نذكر كلماته القاطعة المحددة ..

« من وجهة نظر المعيشة أو الترفيه لم يكن العمل هنا ممتعا

دائما .. اننا اذ نعمل هنا لا تدفعنا منافع مالية او مادية .. ففى بلادنا يحصل المهندسون فى مستوانا على منافع كثيرة .. اسألوا اذن ما الذى ابقانا هنا ؟ اننا ننظر الى العمل هنا كمسئولية هامة على حكومتنا . ونحاول ان ننجز هذه المهمة على احسن شكل .. ونحن نفهم جيدا اهمية العمل هنا ... اننا ندرك مسئوليتنا « ان الفائدة من بقائنا هنا هى نفسها التى تعود من عملنا فى بلادنا . فنحن ندرك أهمية مساعدة العرب » .

والرجل الذى حل محل رادتشنكو اسمه سميرنوف كيريل ايفانوفتش .. يشع وجهه بطيبة الأب . ويحمل على ظهر يده وشما أخضر بارزا ..!

وعندما سألناه عن هذا الوشم قال انه عندما كان صغيرا كان يحلم بان يصير من بحارة الفولجا .. فدق فراشة على يده تشبها بالبحارة ..

وسميرنوف تخرج من نفس المعهد الذى تخرج منه رادتشنكو ولكن بعده بأربع سنوات ، ومر بنفس الطور الذى مر به الأول .. اشترك فى المشاريع الضخمة .. وكان مع الكسندروف فى مشروع قناة الفولجا .. دون التى جعلت من موسكو « ميناء البحار الخمسة » قزوين والبلطيق والأبيض والأسود وأزوف ..

وكانت فكرة ربط الفولجا بالدون حلما قديما .. تماما كحلم السيطرة على النيل فى بلادنا . ففى القرن السابع عشر حاول بطرس الاكبر تنفيذ الفكرة ولكنه فشل .. وكان على الحلم أن ينتظر ٢٠٠ سنة قبل أن يتحقق ..

وعمل سميرنوف مع الكسندروف أيضا فى محطة كويبشيف ، ونال على دوره فيها لقب بطل العمل الاشتراكى للمرة الثانية .. وكانت الأولى بعد محطة انتهاء قناةالفولجا .. دون ..

وقد كانت محطة كويبشيف فى ١٩٥٧ أكبر محطة للطاقة فى العالم كله .. وقوتها مليونان ــ كيلو وات . أما أكبر محطة اليوم فهى كراسنويا رسك فى سيبريا وقوتها . مليون كيلو وات . وفى احدى عمليات هذه المحطة تم تحويل نهر يانسى فى سيبريا . وتلقى العاملون فيه برقية تهنئة من العاملين فى السد .. وارسلوا بدورهم تهانيهم الى عمالنا عندما حولوا نهر النيل .

وقد نال الكسندروف أيضا ـ الذى يتمتع بشهرة عجيبة بين أبناء بلادنا ·· لقب بطل العمل الاشتراكى مرتين ·

أما ماليشيف فهو أصغر هؤلاء الخبراء الكبار فنا . فهو لم يتجاوز بعد الثالثة والخمسين · وعندما قابلناه كان يجلس أمام خرائط مشروع تخزين المياه فى أسوان · وكان آتيا لتوه من الاتحاد السـوفييتى ·· وسيعود اليه ثانية بعد أيام ··

ومالیشیف نموذج فريد من الخبراء السوفييت ··

انه الوحيد الذى يحتم عليه عمله التنقل بين الاتحاد السوفييتى واسوان · عدة شهور فى بلاده وعدة شهور فى بلادنا وهكذا ··

وهو يأتى دائما مع الفيضان .. وكان مجيؤه هذا العام للمرة الثانية عشرة .. وفى العام الماضى ظل فى أسوان تسعة شهور كاملة .

وكان ماليشيف مع السد من قبل ان يبدأ العمل ·· منذ اللحظة التى كان فيها فكرة على الورق وكان وقتها مسئولا عن معهد فى موسكو اسمه « معهد أبحاث السد » ·· وقد فادته خبرته ومسئوليته الى أماكن عديدة من الكرة الارضية ·· مراكش والجزائر ·· السودان · أثيوبيا ، الصين ، سوريا ·· الولايات المتحدة وكندا والبرازيل ··

***

ولقد لخص لنا الكسندروف مشاعر هؤلاء الخبراء الكبار ··

وكنا نسأله عن حقيقة اشاعة سـمعناها عن مرضـه وعن احتمال عودته نهائيا الى بـلاده ·· وجرنا الحـديث الى رأيه فى سـير العمل ، ومشروعاته بالنسبة للمستقبل ··

وقال الروسى ذو الضحكة الذهبية ··

« انى اشعر بالرضا التام عن سير العمل .. طول حياتى كنت ابنى الطرق والمنشآت والقنوات ومحطات الكهرباء .. وعند كل عمل كنت أشعر دائما بالرضا عن نفسى ·· وليست لدى الآن سوى رغبة واحدة ·· هى أن ينتهى السد بنجاح ·· ولست أعلم ماذا سأفعل بعد ذلك · فهذا من شأن الحكومة السوفييتية » ·

- ٢ -

قال لنا مهندس مصرى صديق كأنما يمدنا بمفتاح لفهم الروس : انهم يعملون كثيرا ويأكلون كثيرا . ويمرحون كثيرا ..

وليس فى هذا شيء غير عادى . الغريب فعلا هو تكيف الروس مع طقسنا الرهيب ..

لقد جاء وقت لم نكن نستطيع الحركة فيه . نلهث بعد دقائق من المشى فى الشمس فنهرع الى غرفتنا المكيفة الهواء .. بينما لا يكف الروس عن العمل ، برءوس عارية ووجوه مبتسمة كأنما لم يحدث شيء . ويجرى أولادهم الصغار ـ الذين ولدوا فى الجليد ـ ويلعبون ببساطة فى عز الشمس ..

والشكوى الوحيدة التى سمعناها كانت من رادتشنكو .. وكانت تشير الى الماضى .. فقد قال لنا أن العاملين الاولين للمشروع كانا قاسيين بدون تكييف ، ووقتها لم تكن كمية الكهرباء القائمة تكفى لادارة أجهزة التكييف (كنا نلهث من الحرارة ونحن نكلمه، وكان هناك جهاز ما للتكييف فى الحجرة . وجهاز آخر ينتظرنا فى حجرتنا . كيف بالله تكون الحياة بدون هذه الاجهزة ؟) .

***

والمثير فى الروس فعلا هو أن حياتهم فى السد مليئة تماما . رغم الجو وندرة وسائل الترفيه . وانهم استطاعوا ان يحتفظوا بقربهم من التطورات المختلفة فى كل ميدان فى بلادهم وفى العالم وهم فى هذا المكان النائى .

عندما كان فى بيت باركوفسكى اثار انتباهنا كوم الكتب والمجلات فوق المائدة الوحيدة بالمسكن .

كانت الكتب بالروسية بالطبع .. بابيت لسنكلير لويس ، عصر العقل لايفان يفريسوف ، وهو من كتاب القصص العلمية الخيالية الروس، ومجلة النجمة وهى مجلة أدبية يصدرها اتحاد الكتاب السوفييت .. ثم اعداد من مجلتى لايف وتايم الامريكيتين (كان باركوفسكى يتعلم الانجليزية) .. احدث عدد لمجلة روسية انيقة اسمها مجلة الأدب الاجنبى وكانت احدى صفحاتها مطوية حيث كان يقرأ باركوفسكى .. وكان

الموضـــوع هو آخر مسرحية لآرثر ميلر ، اســـمها « كل شيء حدث في فيشي » .. التي نشرها ميلر في نيويورك قبل ان تنشرها المجلة الروسية بشهرين ..

وكانت هذه أول مرة نسمع فيها عن هذه المسرحية ..

وكانت هذه المجلة تضم أيضا دراسة عن فريدريش دورينمات ، وعندما الحفنا على الصديق الروسى الذى يترجم لنا ، ان يعطينا فكرة عن اتجاه الدراســة ، قال انها لا تحكم عليه بأى شيء وانما تبرز الجوانب المختلفة من أدبه فحسب ، وتؤكد على ايجابية الكثير منها ..

ويحتفظ كل روسى بمكتبة صغيرة فى منزله فضلا عن الكتب التى يستعيرها من المكتبات .

وللروس فى اسوان مكتبتان اساسيتان . واحدة فى الغرب ،فى النــادى الروسى بصـــحارى . والثانية فى الشرق ـ فى النادى الروسى بكيما ..

والمكتبة عبارة عن كشــك صغير فى فناء النادى .. وتضم مكتبة كيما ٢٠٠٠ كتاب و ١٥٠٠ مجلة . وفى النادى يقضى الروس نصـــف حياتهم فى اسوان ..

فيه صالة طعام كبيرة ، واخرى للاجتماعات ، وثالثة للبلياردو ، ورابعة للسينما او الرقص ..

والأفلام والندوات والحفــلات لا تنقطع يوما واحــدا فى هذين الناديين ..

وقد اتيح لنا ان نشهد احدى هذه الحفلات فى احدى ليالى اغسطس الحارة ..

وبدأ الاحتفال بمشــهد صغير من ثمانية عشر شــخصا فى ملابس متماثلة ، عبارة عن بنطلونات زرقاء انيقة وسترات بيضــاء ، هو الزى الرسمى لفرقة كيما للموسيقى والرقص والغناء ! .. ووقف امامهم صــديق جديد لنا هو مدير مركز التدريب .. وغنى .. ثم وقفت سيدة أنيقة جعلت تتحدث بصــورة متصلة اكثر من خمس دقائق وصــوتها يتردد فى حماس غريب .. وعرفنا اخيرا انها كانت تسرد قصة قصيرة .. قصة حب ..

ثم صعد شاب مثل أحمد غانم عندنا ، يغنى ثم يتوقف ليتحدث، ويلقى بالنكت ، وبعده غنت احدى السيدات اغنية التسوق الى موسكو.. ثم وقفت سيدة اخرى تتحدث بحماسة ، تدافع عن النساء فى مواجهة عالم الرجال وتبرر تصرفات النساء ، وتقول ان النساء اصبحن رائدات فضاء وصحفيات . وصفقت النساء فى الصالة بحماسة ..

ووقف شاب نحيف يشبه الى حد كبير عبد الحليم حافظ .. دون سمرة.. واذا به يغنى: « يا زهرة فى خيالى » .. وغناها أحسن من فريد الاطرش .. وبعده مباشرة دبت الحرارة فى الموسيقى وأصبحت الطبلة سيدة الموقف ، ودوى التصفيق فى القاعة عندما ظهرت مرجريتا .. الشقراء الجميلة التى تغنى بجسمها كله .. وسرعان ما انهمرت أغانى الفرانكو آراب : فطوما .. ماما قالت لى كسكليا .. ثم بامبو سودانى.!

كل هؤلاء الفنانين يعملون فى السد عمالا ومهندسين وفنيين . اغلبهم يغنى هنا لأول مرة فى حياته .. ثم يواصل الهواية الجديدة فى بلاده .. فمرجريتا مثلا كتبت قصيدة عن السد وغنتها فى موسكو ..

والمفاجأة الحقيقية ان هذه الفرقة تضم اثنين من المصريين هما بدوى شاذلى ، والسيد البديوى .. الاول سائق جرار على جسم السد . والثانى كاتب حسابات فى الجاراج .

***

وقبل أن نذهب الى أسوان كانت الصورة التى نحملها فى رءوسنا عن الروس انهم متجهمون عابسون جامدون .. وكانت صورة المرأة الروسية فى رءوسنا هى الصورة المعهودة .. البناء الضخم المربع ..

وقد تلاشت الصورتان تماما منذ اللحظة التى وضعنا فيها اقدامنا فى اسوان ..

وفى البداية تصورنا ان عدد السيدات الروسيات قليل فى اسوان .. بعدد السيدات البدينات اللاتى نلقاهن فى الطريق .. ثم عرفنا ان هناك ٨٠٠ امرأة روسية فى المدينة غالبيتهن الساحقة من الفتيات الرشيقات الانيقات ..

وقالت لنا لودا ، المترجمة الشقراء الجميلة ، ان المرأة الروسية لا تختلف عن أى امرأة اخرى . فالنساء هن النساء فى أى مكان فى العالم ..

ولودا فتاة صغيرة لا تتجاوز الثانية والعشرين تخرجت من معهد اللغات الاجنبية فى موسكو وتتكلم الانجليزية كابنائها ·· وعقب تخرجها عرض عليها ان تعمل فى موســـكو أو غانا أو الهند أو مصر · فاختارت مصر ··

وبعد عام من اقامتها فى اسوان تزوجت من مترجم آخر سباب كان معها فى نفس المعهد ولكنها لم تتعرف به الا هنا ··

وكان الفرح الذى أقيم لهما هو رابع فرح من نوعه تشهده اسوان فى سنتين ··

وليس معنى هذا ان كل الروسيات فى اسوان يعملن · فالواقع ان عــدد العاملات منهن ــ من سكرتيرات ومترجمات ومدرسات وطبيبات وممرضات ــ لا يتجاوز العشرين ·· وربما كانت الـ ٧٨٠ روسية أخرى فى اسوان هن الروسيات الوحيداتفى العالم اللاتى لا يعملن ·· وهن يقضين وقتهن مثل السيدات المصريات تماما : الشراء والعناية بالمنزل والاطفال والثرثرة ·· وبعضهن يضج بهذه الحياة فيقمن بدور بارز فى الحفلات المختلفة أو يتطوعن لأى عمل ــ مثل ماريونا سمينوفتش ذات الوجه التتارى الجميل التى تدير النادى الروسى فى صحارى ، وكانت فى بلادها كيمائية ··

وكنا نتحدث مرة مع رادتشنكو عن مهندس مصرى كان يشكو من ان زوجته تركته وعادت الى القاهرة ، فقال الخبير الروسى : ان ظروفنا فى هذه النقطة أحسن من ظروفكم ، فزوجاتنا لا يســـتطعن العودة الى موسكو بسهولة بسبب المسافة ·· !

***

وفى المستشفى الروسى التقينا بست طبيبات روسيات ···

والمستشفى يبهرك أول ما تدخله بالنظافة الشديدة والذوق البالغ فى كل مكان ·· الجدران ناصعة البياض ·· والبلاط شديد اللمعان ·· وكل شىء يلمع ··

وأولى الطبيبات واحدة متخصصة فى الامراض الجلدية وبطلة فى التنس وتنس الطاولة ·· !

والثانية اخصائية امراض نساء ، قضت سنتين فى مصر ، وتعد مجلات الحائط فى المســـتشفى وتكتب الارشـــادات الطبية المعلقة على جدرانه ··

والثالثة ، مدام اوجانسيان ، زوجة أحد كبار المصممين فى السـد وهى ارمنية وطبيبة أطفال وتغنى وتعزف على البيانو ..!

ثم طبيبة أسنان واخرى للانف والحنجرة . سباحة واخيرة للعيون، رسامة !

وازواجهن جميعا يعملون فى السد ..

وعندما التقينا بهن كن فى اجتماع عقدته هيئة المستشفى استعدادا للكشف على جميع الاطفال الروس بمناسبة بدء العام الدراسى .

وهيئة المستشفى تجرى خلال العام ٢٧ ألف كشف، فالكشف الطبى يجرى على الروسى ثلاث مرات فى السـنة .. والامراض المالوفة التى يصابون بها هى الانفلونزا والتهاب الحنجرة والامراض الجلدية والارتباك المعوى عند الاطفال .. وكلها مرتبطة بتغيير الجو . أما الامراض الخطيرة فنادرة بينهم . واذا مرض أحدهم مرضا معديا نقلوه فورا الى روسيا . وهذا لم يحدث مرة واحدة حتى الآن ..

والطبيبات يذهبن الى الكوافير مرة كل شهر ، ويعملن ست ساعات فى اليوم ، ويقمن باعداد الطعام فى منازلهن أو يتناولنه فى النـادى ، ويخترن موديلات ملابسهن من المجلات الروسية أو المصرية .. !

***

والى جانب ال ١٧٠٠ رجل وسيدة هناك ألف طفل روسى فى اسوان .. منهم ٣٠٠ يذهبون الى المدارس ..

وللروس ثلاث مدارس صغيرة انيقة .. تضم كل واحدة مائة طفل تتراوح اعمارهم بين السادسة والحادية عشرة ، فهم بعد ذلك يواصلون دراستهم فى روسيا . وفى مدرسة صحارى قابلنا ناظرتها وكانت قد قدمت لتوها من الاتحاد السوفييتى .. وكنا فى أغسـطس وكانت سعيدة تماما بشمسنا القوية .. ولم نتصور مدى عاطفة الروس نحو الشمس حتى رأينا لوحة كبيرة مصورة فى مدخل المدرسة تحمل كلمات اغنية أسمها « فلتسطع الشمس دائما » .

وصحبتنا كلارا باخيتان ، وهذا هو اسمها ، الى أحد الفصول .. كان الفصل يضم ثلاثين طفلا علق كل منهم على صدره ميدالية صـغيرة تحمل صورة لينين عندما كان طفلا ..

وقالت لنا كلارا : ان بعض الاطفال يشعرون بنوع من خيبة الأمل، فقبل مجيئهم كانوا يتصورون أنهم سيقابلون فى مصر أبطال القصص التى قرءوها فى بلادهم (لم نعرف ما هى وربما كانت الف ليلة وليلة) والجمال والتماسيح ، ولكنهم لم يروا شيئا من هذا كله ·· فيمـــا عدا الاهرامات ·

- ٣ -

كنا نجلس فى أحد المحلات المنتشرة على النيل نتناول طعامنا ، عندما لمحنا المترجم الشاب الذى اشترك فى مقابلاتنا مع الخبراء الروس، جالسا الى مائدة بمفرده ، يتطلع شاردا الى مقابر النبلاء النوبيين القدماء على الشاطىء المواجه ·

كان فكتور كاليجان شابا نحيلا وسيما فى الثلاثين اقرب فى مظهره وشكل ملابسه الى الفتية الامريكان الذين نراهم فى السينما ·· ولم نسأ أن نحدثه فقد شعرنا انه غارق فى تأملات خاصة وربما كان يحس بالحنين الى وطنه ، وهى عاطفة كنا نحن أيضا ـ بعد شهرين ونصف ـ قد بدأنا نشعر بها ··!

ومرت دقائق ·· وفجأة سمعنا صوتا بالقرب من مائدتنا يقول :

ـ عفوا ·· اين قلتم انكم تسكنون ؟

واذا هو المترجم الشاب بوجهه شديد الحمرة ··

ودعوناه ليشاركنا مائدتنا ·· ولم تمض دقائق حتى أصـــبحنا اصدقاء ··

وفيما بعد أسميناه مستر « فيرى جود » ··

فلم نكن نساله عن رأيه فى شىء خاص ببلادنا الا وهز رأسه قائلا فيرى جود ··

عبد الوهاب وام كلثوم ويوسف ادريس فيرى جود ··

وليؤكد لنا انه جاد شرع يغنى مقطعا من انت عمرى ..

صدقى سليمان وابراهيم زكى ورجالهما فيرى جود ايضا ··

وكان سعيدا عندما قلناله : اننا نعجب بيوفتوشنكو .. وانه

« فيرى جود » ·· فالقى علينا بضعة أبيات من قصيدته الأخيرة ·· وعى عن عمال فى سيبريا لم يجدوا ما يشربونه من الفودكا أو البراندى بعد يوم عمل شاق فشربوا الكولونيا .

***

والحق اننا لم نقابل فى اسوان روسيا واحدا لم يكن شديد الحماس لبلادنا وعمالنا ·· والتغيرات الجديدة التى طرأت على حياتنا ·

ان الكسندروف رأى اسوان لأول مرة فى عام ٥٧ ، وكان قد جاء عضوا فى بعثة صغيرة من خبراء محطة ستالينجراد الكهربائية ·· وكان أول مالاحظه وقتها هو كثرة عدد العاطلين فى الطرقات ·· أما الآن فلم يعد هناك ـ كما قال لنا ـ شىء من هـذا ·· الجميع يعملون والمدينة اصبحت اكثر نظافة وتنظيما ··

وعلى مبعدة ألف كيلو من القاهرة كان كبير الخبراء الروس يتحدث فى تقدير وحماس عن الاتجاه الى تكوين تنظيم سـياسى فى الاتحـاد الاشتراكى ليكون اتحادا للناس الاكثر تقدما ·

وكان الحديث مع رادتشنكو فرصة لا تعوض ·· فهو قد قضى فى بلادنا فترة طويلة . كما انه كان قادرا ـ فى لحظة مغادرته للبلاد ـ على أن يركز ملاحظاته ··

قال : ان اروع شىء هنا هو ادراك القيادة العـربية لمغناطيسـية العمل · وارتفاع وعيها السياسى ·· وهو شىء يستحق صدقى سليمان وابراهيم زكى وغيرهما الشكر والتقدير عليه ·· فعندما يعمل الجميع كتفا الى كتف وبفهم متبادل لا تعود هناك أيةصعوبات ·

وقال رادتشنكو انه أعجب أيضا بالمصريين الذين لا يشربون الخمر ، مما ساعد على تدعيم النظام فى العمل ·· بينما لم تعجبه « الجلابية » ·· وكان سعيدا بالحملة التى كانت الحكومة تشنها ضدها ·· ولم يعجبه ايضا بقاء المرأة فى البيت ··

والمفاجأة ان رادتشنكو معجب أيضا ـ بل عاشق ـ لرقص سهير زكى ·· !

وعندما وجدنا نبتسم سارع يقول : ان رقصها فن حقيقى وليس فيه جنس ·· أما رقص فرقة رضا فانا لا أحبه لانه مفرق فى الشكلية··

وفى رأى ماليشيف ان الشعب المصرى شغال وذكى·· وهو معجب « بالزعماء المصريين الذين يتصفون بالنشاط ويعملون على تطوير حياه الشعب » ·

وجميع الخبراء والعمال الروس يثنون على العـــامل المصرى الذى يستوعب الخبرة بسرعة غير عادية ··

وقال لاريونوف يورى سيمينوفتش ، المسرف على أجهزة التركيب فى جسم السد ، ان المصرى « ينكت ويتشاجر وهو يضحك » ··

وكان هناك اجماع حماسى على الافلام المصرية ··

والشىء الذى كان محرجا فى الواقع ان نجد كل من قابلناه من الروس مستمتعا بالافلام المصرية ·· يعرف اسماء نجومها جيدا ··

ومن الطبيعى ان الروس جميعا لا يحبون طقسنا ··

ولكننا وجدنا واحدا منهم أصبح عاشقا لهذا الجو المرعب ·· رجل قصير ملىء ، نسخة طبق الاصل من الرسام المصرى المعروف صاروخان . قابلناه فى أحد مكاتب التصميمات بالهيئة · وعرفنا أنه قادم جديد ·· وكان الرجل سعيدا بالحديث معنا وسرعان ما اخرج لنا صورة كبيرة من درج مكتبه لسد روسى اشترك فى تصميمه ·· !

وكان الرجل واسمه مايفسكى قادما من جورجيا ·· وعندما لاحظنا ان عينيه حمراوان قليلا ·· وقلنا لعل السبب هو الجو صاح : كلا ·· جو اسوان اروع من جورجيا بمراحل ·· فالحرارة هناك أشد والرطوبة هنا لا أثر لها ··

***

هل حقق الروس فائدة ما من اقامتهم فى اسوان وعملهم فى السد ؟

لقد وجهنا هذا السؤال لكل من قابلناه منهم · وكنا نستبعد من المناقشة الاجابة التقليدية التى تقول بان زيارة أى بلد جديد لابد ان تكسبك شيئا · ·

كنا نريد شيئا محددا ··

وقد اعطانا رادتشنكو هذا الشىء المحدد ··

قال نائب رئيس الخبراء السوفييت :

« لاشك انى استفدت كمهندس · فهنا خبرة غنية جديدة · تكنيك جديد وتركيبات جديدة ووسائل جديدة ·· كما انى استفدت أيضا كماركسى ·· لقد اتسعت نظرتنا للأحداث الجارية ·· وشهدنا عملية بناء الاشتراكية فى بلادكم ·· »

ـ ٤ ـ

فجأة ، صدمنا سؤال غريب ··

كيف يتفاهم آلاف المصريين مع الألف روسى ؟

وفى البداية لم يكن هذا السؤال يشغلنا كثيرا ·· ففى مقابلاتنا مع الخبراء الروس كان هناك دائما مترجم بين الانجليزية والروسية ·· وفى احيان اخرى كنا نعثر على مصريين يتكلمون الروسية ، تعلموها فى فترات تدريبهم فى الاتحاد السوفييتى ··

ولكن السؤال طرح نفسه علينا فجأة فى ذات يوم حار من أغسطس ·· كنا نجلس فى أحد المكاتب الخشبية التى أقيمت على عجل وسط الموقع ·· لتختفى سريعا بعد قليل من الوقت تاركة المكان لجبل أو هاوية ·· ثم تظهر فى مكان آخر ·· ككل شىء هنا فى السد ، لا يثبت على حال ابدا ··

وكان بالمكتب مهندس روسى ذو شارب قصير وشعر أحمر ·· ومهندس مصرى آخر اسمه كمال السيد ··

وولج المكتب عدد من العمال المصريين والروس وقفوا امام المائدة التى يجلس اليها المهندس المصرى ·· ودارت مناقشة سريعة حادة ·

كنا نحرك عيوننا فى اعياء ونتمنى أن نغلقها ونفتحها لنجد أنفسنا فى غرفة مكيفة الهواء ·· وجعلنا نتابع المناقشة فى ملل ·· وادركنا ان هناك خلافا حول طريقة نقل احدى الآلات .. ولكننا لم نفهم شيئا آخر ·· فقد كان الحديث يدور بسرعة وسرعان ما انتهى وخرج العمال المصريين والروس ·· وتبعناهم بعد قليل · ونحن نفكر فى دش الماء المثلج الذى ينتظرنا فى مساكننا .. وعندما سقطت أشعة الشمس الملتهبة على رءوسنا وقفنا جميعا ونحن نفكر فى شىء واحد .

حاولنا ان نتذكر الحديث الذى كان يدور امامنا ·· وبأى لغة كان يجرى ؟

بالتأكيد لم تكن هناك كلمة انجليزية واحدة ..

ولم يكن الحديث يدور بالعربية .

ولا بالروسية .

رغم اننا سمعنا كلمات عربية وروسية .

وبدأنا نفكر .. كيف يتفاهم هؤلاء .. كيف يتفاهم يوميا ١٧٠٠ روسى مع عشرين ألف مصرى اغلبيتهم الساحقة لا يعرفون غير لغة واحدة هى لغتهم القومية ؟

وبدأنا نبحث الأمر ..

اكتشفنا أن التفاهم فى المكاتب ـ وهو مالاحظناه من قبل ـ يتم فى سهولة بين المصريين والروس . فالمصريون هنا من فئة المهندسين الذين يعرفون الانجليزية . أما الروس فيستعينون بعشرين مترجما روسيا يحققون التفاهم بين الجانبين خلال الانجليزية . هذا الى جانب بعض المهندسين المصريين الذين يعرفون الروسية وان كان عددهم ضئيلا جدا ..

وتبينا أن مشكلة اللغة سببت متاعب كثيرة فى البداية .. فقد احضر الروس معهم مترجمين بين الروسية والعربية . ولكن احدا من المصريين لم يفهم عربيتهم المستمدة من المعاجم القديمة فضلا عن انهم لم يكونوا يعرفون المصطلحات التكنيكية التى لا زالت عندنا بالانجليزية مما ادى بهم الى استبدال العربية بالانجليزية فى التفاهم ..

أما العمال فكان الوضع مختلفا بينهم . فهم لا يعرفون بالطبع أى لغة وسيطة . وكان التفاهم يتم بينهم بالاشارات ..

هذا هو ماقيل لنا .. ولكننا لم نجد بعد اجابة على سؤالنا فلم يكن العمال الذين رأيناهم فى الكشك الخشبى يستخدمون الاشارات فى حديثهم .. لقد كانوا « يتكلمون » .

الى ان وجدنا الاجابة على سؤالنا فى مكان اسمه مصنع الحقن ..

ومصنع الحقن هو أهم مكان فى السد الآن . نقصد عندما كنا هناك ، فمن يعرف ما هو أهم مكان اليوم ـ اذ تعتمد عليه اخطر مرحلة فى السد وهى النواة الصماء . فالى اعماق بعيدة يجرى الآن حقن التربة باربع مواد ، اثنتين يؤتى بهما من اسوان هما الطفل والرمل الناعم

الاثنين الآخرين يؤتى بهما من روسيا وهما البنتونايت واليومنيت ٠٠ وفى الاعماق البعيدة بقاع النهر تتفاعل المواد الاربعة لتكون الحاجز المنيع الذى سيصمد فى وجه مياه النيل مئات الاعوام ٠٠!

وفى معمل صغير ملحق بالمصنع فوجئنا بسيدة روسية أمام الانابيب ولعلها هى الفنية الروسـية الوحيدة التى تعمل بالموقع ، وأردنا أن نصورها فرفضت بشدة ٠٠ وعبثا حاولنا التفاهم معها ٠ فنحن لا نعرف كلمة واحدة من الروسـية وهى لا تعرف غيرها ٠ وهب أحد مواطنينا لمساعدتنا فقال لها وهو يحرك يديه مشيرا الينا « رابوتى جازيتا صورة سواسوا » ٠٠

وسمحت لنا السـيدة الروسـية بان نلتقط صورتها ٠ وعندما غادرنا المعمل كان هنـاك جمع من العمـال الروس والمصريين أمام احدى الآلات ٠ ولمحنا بينهم واحدا ضخم الجثة يغرى بالتصوير ٠ وتقدمنا منه وقلنا له كلمـة السر التى تعلمناها منـذ دقائق « رابوتى جازيتا صورة سوا سوا » ٠

وتأملنا الرجل برهة ثم انفجرت اسارير وجهه وقال فى هـدوء : موجنا صورة سوا سوا ٠٠ وأدركنا أنه قد وافق ٠٠ فالتقطنا له صورة ٠

ومنذ تلك اللحظة اصبحت آذاننا على الكلمات التى يتبادلهـا المصريون والروس ٠٠ وبدأنا ندون هذه الكلمات فى مفكراتنا ٠٠ لقد أصبحنا نشبه البروفسور هيجنز عالم اللغويات المشـهور فى مسرحية برنارد شو المعروفة ٠٠ !

كانت هناك تلك الكلمة التى تتكرر فى كل جملة مهمـا كان معنى الجملة او الهدف منها : « سوا سوا » ٠٠ وتصاحبها عادة اشـارة من اليدين يضم فيهما اصبعين الى بعضهما ضما شديدا ٠

والمؤكد اننا لم نكن امام حالة يستخدم فيها الطرفان بضع كلمات من اللغتين ٠ وانما كان هناك شىء جديد تماما ٠٠

خذ مثلا عبارة « مدام كسورة » ٠٠ ومعناها ان السيدة مريضة٠٠!

ان خمس سنوات من العمل المشترك قد مزجت بين لغتين غريبتين لم يلتقيا من قبل لتوجد منهما لغة او لهجة جديدة فاتنة ٠

والطريف انه فى حالات كثيرة يقدم احد الطرفين بعض التنازلات فتؤخذ الكلمة كما هى من احدى اللغتين وتضم الى اللغة الجديدة ، فبائع

اللبن الذى يطوف بالمنشآت السكنية على حماره ينادى عليه بالكلمة الروسية « مولاكو » ويفعل بائع الخبز نفس الشىء فيصيح « خليب » بينما يستخدم الجميع ، مصريون وروس ، كلمة « صديق » بصورتها العربية • وفى مباريات كرة القدم يهتف المتفرجون المصريون بالروسية « دفاى •• دفاى » ويستخدم الروس كلمة نوبية هى « اسوموو » •

وهناك ايضا السيارة الروسية الضخمة التى تمتاز بحاجز امامى افقى عبارة عن اسطوانة حديدية كبيرة • وعندما جاءت لاول مرة ورآها عمالنا الصعايدة هللوا لها عندما اكتشفوا ان الاسطوانة الحديدية فى مقدمتها تبدو كالشارب تماما فى وجه الانسان • فاسموها « ابو سنب » وأصبح هذا هو اسمها الرسمى عند الروس ايضا •• !

***

فى اخر يوم لنا بالسد قمنا بجولة سريعة فى الموقع •• كانما لنتزود بنظرة اخيرة من المكان •

وأمام احدى آلات التخريم وجدنا عاملا روسيا يتابع عمود الآلة فى صعوده وهبوطه ، وحوله عدد من العمال المصريين شرعوا فى الانصراف عندما اشرفت الساعة على الثانية ، موعد انتهاء الوردية • وظل هو واقفا يدير الآلة وعيناه تتابعان حركاتها فى استغراق • وانتهزنا فرصة توقفت فيها الآلة لحظة لنسأله :

« موجنا سوا سوا كلام » ؟

فأجاب بالروسية : « باجلستا » ••

ولكننا لم نتقدم كثيرا بعد ذلك • كان قادما جديدا لم يتمرس بعد بلغة السد ••

ومع ذلك استطعنا ان نعرف ان اسمه ميخائيل ايفانوفتش وعمره ٣٠ سنة ، وانه من كورسك •• وحاولنا ان نفهم منه لماذا يستمر فى العمل بعد انتهاء الوردية •• وكل ما اخذناه هو هزة كتفيه وكلمات غامضة لم نفهمها ••

ووقفنا حائرين •• وهو يدير بصره فى وجوهنا المتربة •• ثم ابتسم فجأة ابتسامة عريضة وقال :

« مصرى روسى رابوتى سوا سوا •• »

اجابة كافية •• !

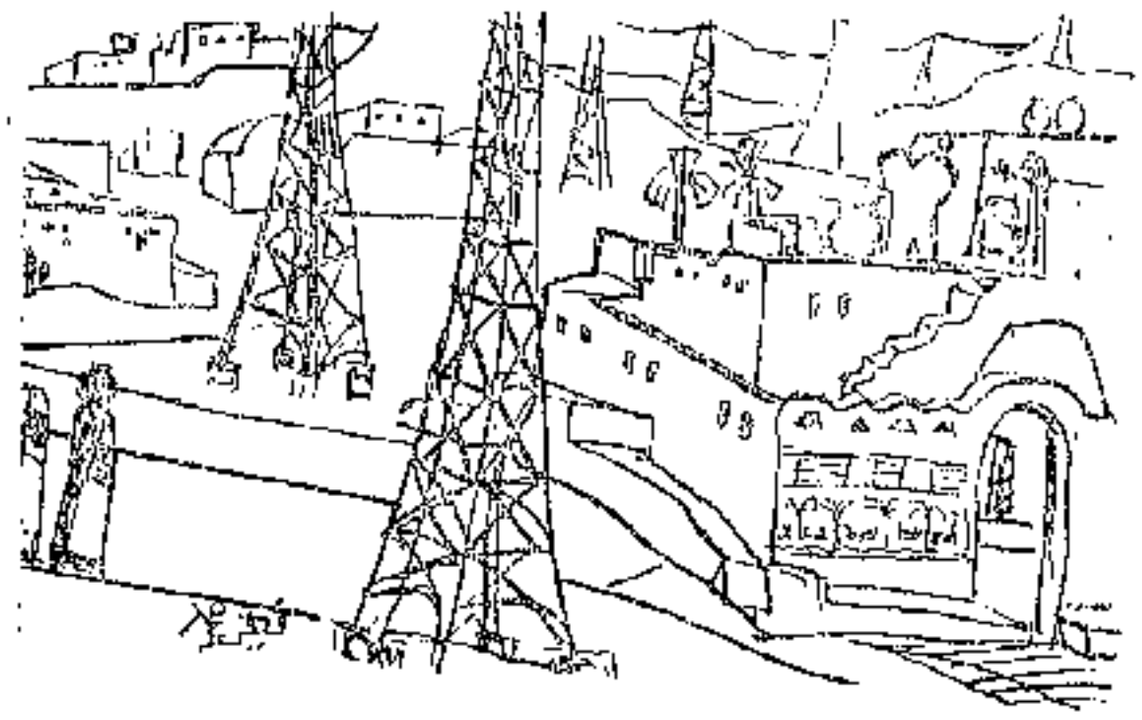

مصابيح ناصر

الذى يعمل ويبنى ويفحت الارض فى بلد مثل مصر تخلفت طويلا ، يعرف ويدرك انه يواجه عدوا قاسيا ، ليس هو التخلف ، وليس الفقر ، وانما الزمن ·· ومن أسوان الى ادفو الى نجع حمادى يصبح العدو أحيانا الجبل ، ومرة الصحراء ، ومرة الحاجة الى الماء وأحيانا تصبح القضية هى النقل أو الموت ·· عشرات الاعداء تواجهك فى رحلتك الى خطوط الكهرباء ··

والذى قادنا الى هذه الرحلة كلمات سمعناها من الكسندروف فى آخر لقاء لنا به ·

قال الرجل الذى لم تفلح علامات الارهاق البادية عليه ، فى محو ابتسامته الذهبية : « عندما قامت الثورة فى روسيا كان أهم شىء واجهته وحققته هو كهربة البلاد ·· وعندما تسللت الكهرباء الى القرى النائية لأول مرة كان كل مصباح يضاء يسميه الناس بمصباح لينين · وكان يضىء فى بيوت الكادحين · وفى مصر سيمد السد العالى أطراف البلاد بالكهرباء · وستضىء مصابيح ناصر بيوت العمال والفلاحين وتغير حياتهم كلها ·· »

***

وخط النور يبدأ من محطة الكهرباء الاساسية لانفاق السد العالى· ومنها لا بد وأن تزرع صحراء مصر وأراضيها بكميات من خطوط الكهرباء واعمدتها وابراجها فى مساحة قدرها مصر كلهـا وطولها من أسوان الى القاهرة ٩٠٠ كيلومتر لخطوط حمولتها ٥٠٠ فولت ، و ٣٠٠٠ كيلومتر لخطوط حمولتها ١٣٢ فولت ·· الى جانب ١٢ محطة محولات تتسلم كل محطة كهرباء السد وتبعثرها على أربعة آلاف قرية مصرية لأول مرة فى التاريخ ·

ان خط أسوان ـ القاهرة الهائل لا توجد خطوط مماثلة له فى أى

مكان فى العالم سوى فى الاتحاد السوفييتى ·· وعندما ينتهى مده فى سنة ١٩٧٠ سينفل كهرباء تزيَد بكثير عن انتاج مصر كله من الكهرباء فى عام ١٩٦٣ ·

وابتداء من أسوان تسير أعمدة النور غرب النيـــل حتى تصل الى محطة محولات نجع حمادى فى قرية « هو » ثم تستمر شمالا حتى محطة محولات أخرى فى ســوهاج · وفى الطريق الذى ظهرت فيه السيارات لأول مرة عام ١٩٦٢ ، تمر بقرى قديمة بها حمامات رومانية تحت قاع النيـــل وممرات فرعونية تحت الارض تفضى الى حمامات أخرى · والى جوارها تقوم مواقع العمل المتحركة · بمهندسين وعمال بعمليات تعرفها أرض مصر وصحرائها المهجورة لأول مرة ·

وربما كانت عملية بناء قواعد الابراج .. التى تتحرك لها قوافل العمال والمهندسين من أسوان الى القاهرة ·· هى أصعب وأعقد العمليات التى شهدها السد · وتبدأ المشاكل منذ لحظة حفر «الجور» التى سيقوم عليها البرج · فطبيعة التربة تختلف من مكان الى آخر· هى أحيانا صلبة، وأحيانا أخرى طينية متماسكة وأحيانا ثالثة هشة تنهـــار جوانبهـا على الفور ·

ولك أن تتصور قافلة صغيرة من العمـــال والآلات ليس أمامها ولا خلفها غير الصحراء تقطع كل يوم فى وهج الشمس النارية خمسمائة متر · وتغرس عرباتها فى الرمال · فى أماكن لا تصـــلها مياه لعمل الخرسانة أو للشرب ·

وعلى الطريق الى سوهاج سمعنا حكايات هؤلاء الرجال الذين كشفت المصاعب التى يواجهونها عن معادنهم الأصلية ·· سمعنا عن الفرق التى كانت تعمل احدى عشرة ساعة متواصلة دون أن تتوقف لتناول الطعام · وتواصل العمل بالليل · فى ضوء كشافات السيارات · وعندما تفرغ البطاريات يشـــعلون النار فى اغلفة الاسمنت ويواصلون العمـل على ضوئها ·

ولم نكن نتصور فى رحلتنا الى خطوط الكهرباء الممتدة من أسوان الى نجع حمادى وسوهاج أن نلتقى بفنان يعمل فى الخطوط ، متخرج من الفنـــون الجميلة ، مهنته بناء البيـــوت ويشغل كل عقله هدم القرى وبناؤها ·

هذا المهندس المعمارى اسمه محمد عصام عباس ٣٥ سنة تخرج من

الفنون الجميلة منذ عامين ، وأمضى عاما فى لجنة البحوث العلمية لدراسة أشكال القرية فى اللجنة العليا لبـــحوث القرية ٠ وكان رئيسه المرحوم الدكتور أنور المفتى ، ويقول عصـام ان هـذه اللجنة كانت أول لجنة فى القطر تواجه المشكلة مواجهة سليمة ٠٠ كان بها ٢١ شخصا من كل مهنة تمت للفلاح بصلة ٠٠ وبعد حل اللجنة سعيت للعمل فى السد العالى ، كنت أحلم دائما بالعمل فى مشروع كبـير ٠٠ وعندما ذهبت الى خطوط الكهرباء كنت أدرس كل قرية نمر عليها وأصورها وأراجع عليها أفكارى، التى ساعود اليها بعد السد العالى ٠ عندى ٣٠٠ صورة لقرى الصعيد التى مررت بها ٠

لقد قدم عصام فى القـــاهرة دراسة للماجستير فى هـــدم القرى وبنائها ٠٠ والدراسة عن قرية الحرانية فى الجيزة ٠ درس تعدادها من مائة سنة وتوقعات السكان فى المستقبل لتـحديد الخدمات التى توفر للقرية فى تخطيطها الجديد ٠٠ وفى القاهرة أيضا ترك عصام قصة حب عنيفة كتب فصلها الختامى قبل لقائنا به بأيام ٠٠ فقد استقالت فتاته من عملها فى القاهرة ، ولحقت به فى خطوط الكهرباء ٠٠

ويقول عصام : لم أشهد فى حياتى أروع من مسيرة موكب الكهرباء ٠٠ كنا متوقعين مشاكل مع الفلاحين ومع الصعايدة لان الخطوط تخترق اراضيهم فى أحيان كثيرة ٠ ولكننا فوجئنا بتعاون كامل ورائع ٠ كنا ننقل معسكراتنا كل عشرة أيام تقريبا أو شهر بجـــوار قرية ونبدأ فى بناء القواعد الخرسانية التى ستقام عليها الخطوط ، تصوروا ان الفلاحين كانوا بيقلعوا الزرع بتاعهم عشان يساعدونا ٠ وكانوا دايما يسألونا فى كل قرية سؤال واحد محدد : الكهربا حتيجى امتى ؟ أنا سئلت هـذا السؤال مليون مرة ٠ كان معايا مرة اثنين مهندسين فى عربية ، وانغرزنا فى الرمل بالقرب من قـرية بيت داود مركز جرجا والعـربة غرق كل العجل بتاعها ، واحد فلاح شافنا راح مبلغ البلد ٠ البلد كلها جت من الغيطان ومن البيوت ورفعوا العربية من الرملة وأنقذونا ٠٠

« فى قرية الكرنك واجهنا مشكلة المكان الذى نضع فيه معسكرنا٠ عمدة البلد كان عنده حتة أرض مش مزروعة ، أعطانا قطعة أرض وأعطانا حجرة مربعة مبنية للمخزن ٠ ومرة مات سواق من عندنا فى حادث أثناء نقـــل الاسمنت عندما انقلبت العربة ٠ اتلخبطنا معرفناش نعمل ايه ؟ فوجئنا بأن القرية اللى جنبنا احضروا الكراسى والدكك والحصير والمقرىء وجم أهاليها وعملوا معزى فى الجبل وكان شعور رائع من ناحيتهم ٠

« لا أستطيع أن أحكى لكم عن الترابط غير العادى بين عمليتنا ، بناء أبراج الخطوط ، وبين علاقاتنا بالقرى بمئات القرى ومئات الفلاحين الذين احتكوا بنا وعملنا بجوارهم • لن أنتهى أبدا ولن تصدقونى • كان المشروع وكأنه بتاعهم ينمو فى حضنهم الاكل من عنـدهم والرجالة من عنـدهم من قلب القرى والعيش والميـه •• بدون هـذه القرى والكفور والنجوع الصغيرة لم نكن نستطيع أن نحقق شيئا •• لقد شعروا بلا كلمة منا ان السد ده بتاعهم • وان الكهربا احنا مجرد عمال فيها وحتوصلها لهم • كان وعيهم بالسد فوق التصور ••

ولن أنسى أبدا رحلة زحف الخطوط فى منحنيات الجبل وفى قلب الصحراء وفى حضن الفلاحين •• لن أنسى أبدا وساعود حتما بعد السد العالى لأبنى قرى وأهدم القـديم •• أبنى قرى جديدة مضيئة بالكهرباء جديرة فعلا بهؤلاء الفلاحين » •

***

ان مصابيح ناصر تسطع بالنور من الآن •• بل منذ اليوم الاول لحياة السد ••

فما ان تغرب الشمس حتى تضىء آلاف المصابيح فى منطقة السد • تحول ليلها الى نهار ••

والواقع انه من الصعب أن تميز الليل من النهار فى السد ••

سوى ان السد بالليل يتحول الى عمل شـاعرى جميل بلا حرارة النهار القاسية ••

وعندما تقترب من الموقع فى أى ساعة من ساعات الليل •• يخيل اليك انك وقعت فجأة على مدينة تحتفل بانتصارها •• فأقام أهلها فرحا هائلا ••

وقد قضينا فى هذا الفرح ليلة كاملة •• هى أمتع ليلة قضيناها فى حياتنا •

- ٢ -

الساعة ١١ • التقينا بسائق عربة كرّاز ، رحب بان يستضيفنا فى عربته طول الليـل لنرى الموقع • السائق اسمه خزاعى وهو يعمـل فى نقل الطمى من محجر الطمى الى النـواة ، فى قلب جسم السد • كابينة

العربة ضيقة نوعا ، لا يوجد مقعد بجوار خزاعى . وليس هنـــاك غير صندوق حديدى صغير انحشرنا فوقه ٠

الساعة ١١ر٣٠ ٠ وصلنا الى قلب الموقـع ٠٠ الى جسم السد ٠ عبرناه وانطلقنا فى اتجاه مبنى الهيئة ، الانوار شموع رفيعة على أرض مصر كلها ، تمنينا أن تصبح مصر كلها سدا مضيئا ٠ انحرفت العربة الى اليسار ثم الى اليمين ، الطريق ١٤ كيلو حتى محجر الطمى ، الطريق تحتله قافلة من العربات كنجدة حربية ذاهبة لفك الحصار عن كتيبة مقاتلة ٠ الطريق يئز ويزمجر ٠ أصوات كأصوات معركة ضارية تهد صمت الليل وتلغيه تماما ٠ الانوار تتلاحق على جانب الطريق ٠ بدا الغبار يتكاثف أمامنا ٠ دخلنا على جيش من العربات الضخمة ٠ نزلنا محجر الطمى ، وهو من ثلاثة أدوار وفى كل دور تقف كراكة فوقهـــا رجل ، كان هذا المحجر جبلا فأصبح هاوية لهـــا جدران مرتفعة ٠ فى قلب الهاوية تقف كراكة تنهش الحائط بكباشتها ٠ سائق الكراكة المصرى يدوس على أشياء أمامه فتتحول الحجرة التى يقودها الى أى اتجاه يريده ، وهى ثابتة فى مكانها ، ويصوب ذراعها الذى ينتهى بالكباشة الى حائط المحجر ويأخذ منه ما يملأ الكباشة ، ويغلقها ، ويدوس على أزرار فتتحول الذراع الى المكان الذى يريده على سطح العربة ٠ يفتح الكباشة فتنهمر حمولتها التى تملأ عربة ٠

أمام منضدة جلس رجل يحصى العربات ٠ وبجواره ورشة لصيانة الكراكات واصلاحها ٠ لا يمكن ارسالها للورش فى الموقع لانها ثقيلة جدا وبطيئة جدا فى السير ٠ قد تصل الى الموقع فى يوم أو اثنين ٠

امتلأت عربتنا ٠ حرك سائق الكراكة ذراع الكباشة ووضعها فى حائط الجبل لتفرضه ٠ وانطلقت العربة ٠ وزحفت مكاننا عربة أخرى ٠

خرجنا من المحجر ٠ وعدنا فى نفس الطريق ٠ لم نتبادل مع خزاعى سوى كلمات قليلة ٠ ضجة العربة والمجهود الذى يبذله خزاعى فى قيادتها تجعل الحديث مستحيلا ٠ بين الحين والآخر يقـول خزاعى : ميت مسا عليكم ٠ وصلنا بالقرب من جسم السد ٠ عدد من العربات يسد الطريق لأن احدى العربات غرزت فى الأرض المرشوشة بالماء ، فتحنا باب العربة ونزلنا ٠ القمر مضىء ولكن نور السد أقوى ٠ انفتح الطريق بعد قليل واستأنفنا السير ٠ دخلنا على جسم السد وممرات التفتيش ٠ استدارت العربة ووقفت وأشار اليها الملاحظ فداس الســائق بقدمه على احدى الدواسات وقبض بيديه على عدد من القضبان داخـــل العربة وجذبها ٠

فارتفع صندوق العربة الضخم الى أعلى وأخذ وضـــعا رأســـيا وانهمرت حمولته • وباشارة أخرى من الملاحظ بدأت العربة تتـــحرك الى الامام وصندوقها ينزل رويدا رويدا حتى يلتصق من جديد بالعربة •

الساعة الواحدة • انهينا النقلة الاولى • أمامنا لافتة كبيرة أضاءتها مصابيح الليل : السد العالى طريق الرخاء •• منزل • ثم مطلع تحشد له العربة كل قوتها تتقدم ، صوتها وأزيرها متـل الطـــائرة وهزاتها لا ترحم • بعد عدد من المطالع والمنازل وجدنا أنفسنا أمام مكان كالمقهى• مائدة من الخشب وعدة أزيار وراديو ترانزستور • ورائحة الشـــاى الجذابة تأتى من الداخل جلسنا نـــتريح • رفض خزاعى ان يجلس معنا • قال اعمل نقلة الى ان تستريحوا •

• الساعة ١٥ر٢ • اتممنا نقلتين من محجر الطمى ، وتركنا العربة الى جسم السد • البلدوزرات والهراسات تجرى على الرمال والطمى تدك الارض • ممرات التفتيش بدأت تختفى ويرتفع الطمى بجوارها • سائق الهراس شاب صغير اسمه فهمى عبد الله دكرورى • على الهراس كلمات بالطـــلاء الابيض : عاش عبد الناصر • عبد الناصر هنا معبـود حقيقى للبسطاء • والجماهير التى لاتعرف الفلسفة • التى تقيس الناس والزعامة بمدى جسارتها واخلاصها • هنا اكتشف الناس عبد الناصر ببساطة ، تعتبره بطلها وحبيبها • وعندما تتحدث عنه تتحدث عن أخ وانسان تهفو الى أن تقـــابله لسبب واحد • كى تنقل اليه خواطرها وحديثها القلبى الخاص • وفى العادة ترى الجماهير فى قائدها شيئا أعلى •• أقل درجة من الله • ولكنها هنا تعتبر عبد الناصر صديقا • تحبه باخلاص • حقيقى وتتعصب له •

الاضواء والكشافات معلقة على ســـقف نفق التفتيش • بين النفق والرمال التى تجلس عليها عشرون مترا تقريبا • فى نهـــاية النفق من ناحية محطة الكهرباء ومن بداية جســـم الســـد من ناحية الشرق عدد من الصعايدة يمهدون الارض بالفئوس ويرشون على الطمى المياه • الجميع يقولون ان العمل بالليل رائع •

كميات الطمى تلقى فى النواة • يمر عليها جرار عادى بدون هراس حوالى ٢٠٠ مرة فى ساعة واحدة • ثم يسير فوقها جرار يسحب هراسا وزنه ١٠ طن يمر على نفس القطعة ٣٠٠ أو ٤٠٠ مرة ثم هراس آخر وزنه ١٨ طنا ، ورابع وزنه ٢٥ طنا ، وخامس وزنه ٣٥ طنا ، كل هذا ليتحول الطمى الى أرض صلبة •

الساعة ٣ • نحن نسير فوق النواة • خلفنـا جزء من جسم السد تلقى به الصخور الضخمة • الصخور تحدث قصفا كالرعد وهى تنـحدر على جسم السد من أعلى وتصطدم بأحجار ضخمة مثلها ، ويتطاير منها الشرر • وقفنا لحظة بعد قلب جسم السد • تل هائل الارتفـاع من الاحجار يواجه أسوان البعيـدة هو القسم الخلفى من السد • استدرنا لنواجه تلا آخر يواجه السودان وبحيرة ناصر القادمة • بيننا وبينه بضع عشرات من الامتار • الارض تحتنا صفراء مبتلة • رمال خشنة أتى بها التجريف لتكون طبقة من طبقات السد • المواسير الضخمة ملقاة على كل جانب • عربة ماز مقلوبة على جانبها • وقد ارتفعت عجـلاتها فى الهواء وبدا بطنها كبطن سلحفاة خرافية عاجزة مقلوبة على ظهرها •

فى الجانب الآخر بلدوزر يتراجع الى الخلف ثم يندفع فى اتجاهها مصوبا سكينة من الصلب العريض الى صندوقها المائل المفتوح ، ينظفه من الاحجار الضخمة • ثم دفع نفسه فيها مرة أخرى فارتفعت بمقدار متر عن الارض وتركها • عاد الى الخلف وعادت العربة الى وضعها المقلوب • ومن جديد اندفع فى اتجاهها بحساب محسوب ودس مقدمته فى جنبها ورفعها مترا • وأوقف البلدوزر سرعته وحبس أنفاسه • وزحف ببطء وهو يحمل جانبها على مقدمته • ثم زقها زقة فنية دقيقة وسمعنا رجة واعتدلت العربة على عجلاتها من جديد • شامخة متكبرة • وعاد البلدوزر الى الخلف • ونزل سائقه ••

جبابرة هؤلاء السـائقون .. سائقو الكراكة التى تحطم الجبل ، والعربات التى تسير فى المطالع والمنـازل الرهيبة • ثـم البلدوزر الذى يسوى ويرتب الأمر • وآلاف الأضواء • العمل والصوت والحركة ودخان العربات والغبار • وأجسامنا تتخدر • ونريد أن نعود الى مكان قريب من طريق صديقنا خزاعى •

نرتكن على ماسورة قطرها متر على الأقل وتمتد بلا نهاية • احدى أعصاب السد التى تنقل الرمال بالتجريف • ويقترب منا سائق أسمر مترب. وجهه متغضن كأنه تجاوز المائة. أنه سائق العربة التى انتشلها البلدوزر منذ لحظات لقد اجتاز منذ لحظات الطريق من الموت الى الحياة وتبدو على وجهه مشاق الرحلة الهائلة • قال ان اسمه عبد العزيز أحمد حسن من أسوان • كنت شايل حجـارة من محجر الطوب ، قطعة وزنها ٢٥ طنا ، وبعدين طالع المطلع ، ده عشان أرمى الحجر على السد الامامى ، العربية ماز كبيرة ـ وأنا طالع المطلع الحجر جه على الجنب اليمين • شعرت

بالعربية كلها شوف وزنها قد ايه بتميل هى كمان على اليمين ـ وانا فى وسط المطلع حاولت • بصيت لقيت العربية بتتقلب ، أول حاجة شعرت بيها الخوف انى أقع تحتها • مسكت فى الدركسيون •• ايدى ماتت عليه عشان مقعش تحتها • جسمى اتصلب زى حتة الحـديد • وبقيت زى الكرسى ، كل ده مخدش ثوانى لغاية ما العربية اتقلبت على جنبها وبعدين على ضهرها • بصيت لقيت نفسى متشعلق جـوه العربية ، الدركسيون شمال والعربية اتقلبت على جنبها اليمين • لما العربية نامت خالص حاولت أطلع برة العربية من الشـباك اطرطشت ميتنار من البطارية ، وخرجت وأنا ما زلت مرعوب ، اترميت على الحجر والرملة وأنا مش مصدق ان أنا نجيت •

وسكت السائق • وأشعلنا له سيجارة • بدا عليه أنه يسترجع نفس اللحظات التى مرت به منذ ساعة • بل أكثر من ذلك ، اكتشفنا أنه يسترجع لحظات مماثلة واجهها من قبل • مرة كنت بعدى من تحت كبشة الكراكة بالعربية ، قام زقت العربية زقة نومتهـا على جنبهـا ، وبرضه استموت علىالدركسيون بتاعى حتى ما أتنطرش فى اى ناحية، معرفتش بيحصل ايه لحظتها • قوة خارقة بتساعدنى ومحصلش حاجة ، الكراكة بعدها بدقيقتين مدت ذراعها وسواق الكراكة نشن الكبشة بتاعته ورشقها تحت الصندوق ، وببساطة شديدة وببراعة هائلة اترفعت العربية • .

تركناه يستريح وتحولنا الى سـائق البلدوزر رقم ٩ الذى عدل العربية قال مشيرا الى البلدوزر : ده يقدر ينقذ أى حاجة • حمولته ٤٥ طنا.اسمى شحاته حواس ٣٠سنة من مركز قوص قنا حاصل علىوسام الاستحقاق من الدرجة الخامسة من الريس (تقديرا لحميد صفاتكم وجليل خدماتكم منحناكم وسام الاستحقاق من الدرجة الخامسة) • وردية الليل أحسن من وردية النهار • العربية بتغلى فى الحر ولازم تتبرد بالمبه كل نقلتين ، لكن طبعا وردية النهار كويسة عشان نوم الليل مايتعوضش •

الساعة ٤ • تركنا هذا الجانب من جسم السد وذهبنا الى بداية الطريق ، فى أقصى اليمين • مشى معنا شاب من أسوان جعل يحدثنا عن المدينة وعن فتاة يحبها • وعن ممرات التفتيش • اجتزنا الاضواء المركزة على جسم السد والمعلقة فوق أنفاق التفتيش • على جسم السد مجموعات من العمال تعمل فى أشياء متنوعة • عمال لحام ، وبالفئوس ، وملاحظين ، ومشرفين ؛ والعربات تدخل محملة وتخـرج فارغة ، والحركة لا تهدأ ، وصديقنا الأسمر لا يكف عن الحديث ، ونحن ننظر فى كل عربة نفتش.

عن خزاعى ، وصمم الشاب الأسمر أن نشرب شايا ، فذهبنا الى نهاية الطريق حيث يقوم كشك صغير يجلس أمامه شاب يغالب النوم ويقاومه • بجوار الكشك بلدوزر صغير جلس فى كابينته عامل روسى يقرأ كتابا فى ضوء مصباح معلق داخل الكابينة • البلدوزر يفعل شيئا لا تفهمه مع مواسير التجريف • والعامل الروسى يسلى وقته بالقراءة •

الساعة ٥ • بعد أن يئسنا من مقدم عربتنا ، ظهرت عربة أخرى بها زميل لسائقنا ـ قال ان خزاعى يبحث عنا • ركبنا معه الى محجر الطمى • يحثنا عن عربة خزاعى فلم نجدها •• نزلنا بعربتنا بجوار الكراكة ، وبدأت العربة تمتلىء • شعرنا بهـــا تندك ورسيت وثقلت ونزلت عدة سنتيمترات فى الارض • تذكرنا العربة المقلوبة • بحثنا عن أى شىء أمامنا فى العربة نمسك به ونستميت عليه حتى لا نضيع فلم نجـد • ونحن خائفون هائمون فى خواطرنا انطلقت العربة من تحت الكراكة وسارت وخرجنا من الممر وعندئذ وجدنا عربة صديقنا خزاعى فانتقلنا اليها •

الساعة ٥ر٤٥ • نور الشفق بدأ يظهر ضعيفا • مرة أخرى فى المحجر تحت الكراكة •

الساعة ٦ • بدأنا نعود • وما زال الظلام حيا • نغالب النوم بشدة، أضواء الكهرباء تندمج فى ضوء النهار الذى بدأ ينتشر • نصف دائرة من الأنوار الكهربائية تضىء جوانب الســد كله •• الشــفق أصبح أحمر ملتهبا • قليلا من ناحية الشرق •

الساعة ٦ر١٠ • انتهى طريق المحجر • دخلنا على الطريق المؤدى الى جسم السد • قال السائق فجأة : صباح الخير يا جماعة • دلوقت احنا داخلين على جسم السد فى آخر جولة لنا • عيون سائقنا حمراء كالدم •

الساعة ٦ر٢٠ • فوق النواة ننتظر العربة حتى تفرغ حمولتها • على قمة الطريق تقف العربـات الضخمة مصطفة خلف بعضهـا وبجوار بعضها بنظام وترتيب • منظرها بعد غزوة الليل كقاذفات القنابل الضخمة فى الأفلام وقد عادت بعد أن ألقت حمولتها •

الســاعة ٧ • ودعنا خزاعى وتركناه • سرنا خطوتين ثم توقفنا • لأول مرة نرى الســد بصــورة مختلفة عن الأيام الســابقة • النيل من الجانبين. ومن الشمال والجنوب. وجسم الســد واضح كله بكل نتوءاته. وتفصيلاته • رؤية مختلفة عن رؤانا الســابقة له ، عن كل يوم كنا نعبر

فيه السد من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق · السبب أن المكان مضيء بضوء النهار دون شمس ، دون أشـعتها الحارة التي تعمى العين · لأول مرة نرى كل شيء واضحا بالتفصيل الشديد · وقفنا لحظة ماخوذين ثم سرنا · مسافة كيلو ونصف على أقدامنا في بطء وتمهل · الطرق كلها مرشوشة استعدادا لشمس النهار · بدأت الشمس ترسل أشعتها الأولى أشعة خفيفة حانية قبل ان تتوحش · الناس في كل مكان · العربات · الشاى · باعة البليلة والسجائر والعربات المكتظة بالعمال ·

الساعة ٨ . كنا ندق باب حجرتنا . ونحن نحس بنشوة هائلة تجمعت من كل تعب الليل ، ومحنه ! والنوم الذى كنا نتصور اننـا سنستسلم له على الفور طار وحـل محله نشـاط اعادنا من جديد الى السـد .

بطل السد

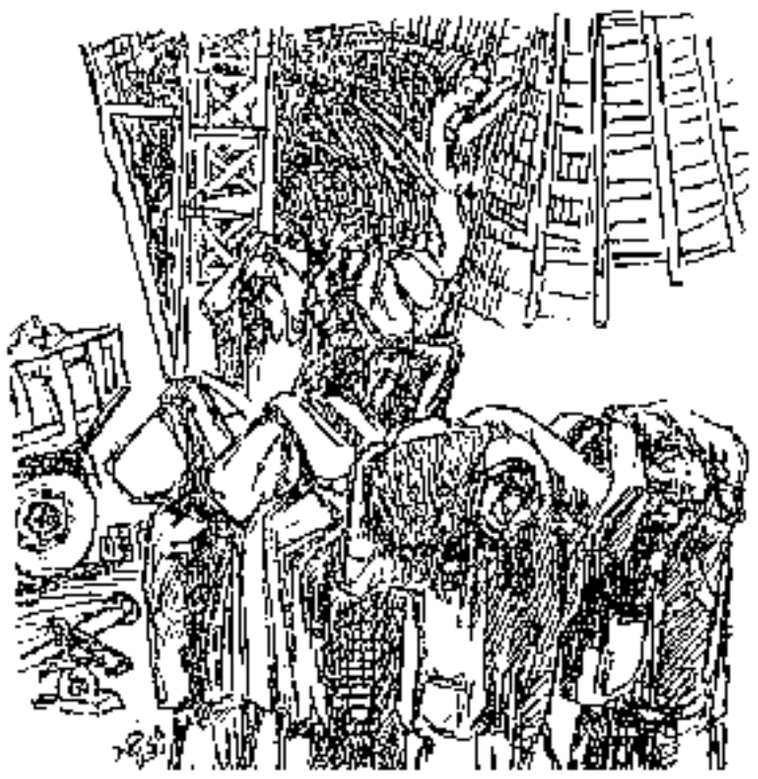

- ١ -

كنا ننقل أقدامنا باعياء فوق الرمال ٠٠وعلى مقربة كان يقف بعض الصعايدة ٠٠ يملأون المقاطف بالتراب ٠٠

كان منظرهم غريبا حقا .. فنادرا ما كنا نلتقى بهذا النوع من رجال السد ٠٠ الذين يقومون بأكثر الأعمال بدائية ٠٠ حمل الرمال فى المقاطف ٠٠

ولمح أحدهم كاميرا معنا فقال لنا مبتسما عاوز منظر .. أنا بطل السد ٠٠ !

وتذكرنا رادنشنكو ، نائب رئيس الخبراء السوفييت ، الذى قال لنا مرة فى ثقة : لولا ايدى الصعايدة ما تمت المرحلة الأولى ٠٠

انه أمر يبعث على الفخر حقا ٠٠ ولكن ذلك الصعيدى الذى قابلناه وهو يملأ المقاطف بالرمال ، لم يكن بطل السد ٠٠ !

ان بطل السد الحقيقى هو ذلك الذى صنع منه السد ، عاملا فنيا ماهرا ٠٠ لأن ارادة التغيير لديه ، التى حولته من عتال الى فنى ، هى التى ستغير وجه بلدنا ٠٠ انه هو الذى سيبنى مصر الاشتراكية ٠٠ !

وهناك الآن المئات بل الآلاف من هؤلاء تخرجوا جميعا من مدرسة السد ٠٠

***

وفى السد مدرسة حقيقية ، مبان وفصول واساتذة وطلاب ٠٠

انه مركز التدريب ٠٠ مبنى واسع أبيض ينتصب على مشارف اسوان ، له سور طويل جدا يشبه المدارس الثانوية الحديثة ٠٠

وقصة هذا المركز تبدأ منذ عام ٦٣ ٠٠ قبل هذا كان التدريب يجرى فى الموقع نفسه ٠٠ وكانت هناك بعثات ترسل الى الاتحاد السوفييتى ٠٠ ولكن السد لم يكن يستطيع الاستغناء عن عماله ٠٠

ليتدربوا بعيدا عنه .. وعندما قاربت المرحلة الأولى الانتهـاء ، وارتفع مستوى العمل الفنى ، كان لا بد من اعداد تدريب منظم للآلاف ..

وكانت طاقة المركز فى البداية ٧٠٠ طالب فى مختلف التخصصات ولكن المبانى الجديدة كانت تقام باستمرار داخل المركز .. كلما انتهوا من جناح وتصوروا أن المركز انتهى . يبدأون جناحا آخر ..

واستطاع المركز أن يخرج كثيرا من العمال المهرة الذين حلوا فى الحال مكان العمال الروس .

والسـد العالى هـو الذى يخطط لمركز التدريب دراساته وعدد طلبته .. تبعا لاحتياجات العمل.. مثلا فى العام الماضى بدأ العمل فى الحقن .. قبلها طلب السد من المركز أن يدرب ويخرج فرقا من الملاحظين والعمال المهرة لعملية الحقن التى بدأت فى سـبتمبر ٦٥ . وبعد ذلك مباشرة طلب من المركز تدريب ١٠٩٠ طالبـا : ٨٦١ كهربائيا و ٣٠٥ من الميكانيكيين ، يحتاجهم العمل فى خطوط الكهرباء ومحطة الكهرباء .

وفى المركز ثلاثة مستويات من الدراسة .. الأول لخريجى المدارس الصناعية ومدة الدراسة ستة شـهور ، فى المركز ، ثم ٣ فى الموقع على الآلات والعربات الجديدة .. مع الحصول على مرتب أثناء الدراسـة عبارة عن ٤٠ قرشا و ٥٠ قرشا . يوميا . ثم ٧٠ عند التخرج .. ومن خلال الدراسـة يتم تخريج عمال مهرة وخـلال العمل يختار « الملاحظين » .. والملاحظ هو المشكلة الأسـاسـية فى السد وربما فى مصر كلها .. فهو الفنى التكنيكى القادر على التنفيذ وعلى قيادة عمل العمال .. وهذا هو الدور الحقيقى لمركز التدريب فى أسوان ..

ان فصول المركز عبارة عن ورش كاملة .. وهى مقسمة الى مائة وخمس مهنات تبـدأ من اللحـام والخراطة والتجليخ الى التخـريم والميكانيكا والكهرباء .. ويشرف على الدراسة به مجموعة عجيبة من المصريين والروس ..

المستشار الفنى للمركز ضابط مهندس جاء من القوات المسـلحة راسا. وطابعه مدرس أكثر منه عسكرى، يحمل فى محفظته البوم صور لعائلته .. كل بناته طالبات فى كلية الهندسة .. اسمه المقدم الحسينى .

وللسوفييت ، وعددهم صغير جدا ، رئيس اسمه كونيوخوف فالنتين

هو كبير المعلمين يميل الى القصر ، نحيف ، ظريف ، أصلع ، عينـــاه صافيتان تشعان ذكاء وخفة دم ٠

أول مرة رايناه كان فى احدى الحفلات وكان يغنى ٠٠ تم عزف على البيان ٠٠ واكتشفنا انه عاش فى القاهرة عدة سنوات فى مدارس تدريب أخرى ٠ وكان جنديا خلال الحرب وعمره ١٨ سنة ودخل برلين مع الجيش السوفييتى وأخذ ستة ميداليات فى الحرب ٠٠

قال لنا فالنتين : اننا أكثر حماسا منكم ، لدور هذا المركز ، ٠٠ فبلادنا تحتاج الى خبرائها لقد أرسلوا لى من روسيا ثلاث رسائل ليسألونى متى أعود ومتى سينتهى عملى هنا ٠

***

ان العمال المصريين الآن يديرون مختلف الآلات والأجهزة والعربات ٠ لقد أصبح المئات منهم عمالا مهرة ٠٠

ولقد تحقق هذا كله فى ثلاث سنوات ٠٠

ففى ٥٩ عندما بدأت هيئة السد عملها ٠ لم تجد عمالا فنيين سوى عشرين عاملا بالتمام والكمال ٠٠ عبارة عن سائقين ٠٠ !

وقد روى البروفسور ايفان كومزين ، رئيس الخبراء السوفييت السابق ، فى كتابه عن السد ، القصة التالية التى حدثت فى الأيام الأولى للمشروع :

« فى احد ايام العطلة الاســبوعية ، اتصل بى تليفونيا المهندس كودريا فاتسيف ، وأبلغنى بصوت غاضب ان أحد الأفراد حول احدى الكراكات الى أرجوحة خيل ٠٠ !

« وسألته : أى أرجوحة تعنى ؟

« فأوضح قائلا : ان أحد العمال العرب الذى أخذ دوره فى برنامج التدريب منذ بضعة أيام فقط ، قام بتشغيل احدى الكراكات ، وكانت النتيجة ان الماكينة تدور الآن حول محورها بينما هو يصيح بأعلى صوته ٠

« فاندفعت على الفور الى مكان الواقعة ، وهناك وجدت ان ماحدث هو أن نحاس مرسى ، وهو من العمال الذين لازالوا تحت التمرين ، قد أحضر أصدقاءه الى مكان الكراكة ٠٠ وأخذ يشرح لهم كل مايتعلق بالآلة بلهجة الخبير المتمكن من معلوماته ٠ ثم أخذت الأسئلة تنهال عليه ، ويبدو

ان أحد الأفراد قد أعرب عن شكه فيما اذا كان باستطاعة مرسى ـ فعلا ـ تشغيل هذه الآلة المعقدة · ودون أى تردد أدار العامل الشاب موتور الكراكة ··

وبدأ الحشد الصغير من الاصدقاء ومن لا عمل لهم ، بل والملاحظون أيضا فى الهتاف والتصفيق ، وكان هذا حافزا للعامل الذى أخذ مكانه من الآلة وبدأ فى تشغيل ذراعها ·· وفجأة بدأت الكراكة فى الدوران··

واجتاح المجموعة كلها شعور عارم بالفرح ، فأخذت تصيح وتصفر بينما لوح نحاس ، الذى علت وجهه امارات الجد ، بيده منتصرا ···

وبالتأكيد لم يتغير الشعور بالانتصار أو الجدية عند عمالنا الذين يقفون أمام الآلات الضخمة فى السد الآن ··

الذى تغير أنهم أصبحوا سادة هذه الآلات ·· !

- ٢ -

بجوار مركز التدريب مباشرة منطقة تسمى السيل · وسبب هذا الاسم انها بقعة منخفضة وخلفها مباشرة الجبل ·· وعندما كان المطر يأتى كل خمس سنوات أو سبع كان ينزل فى صورة سيل جارف ، ويتكوم المـــاء فى هذه البقعة وينمو النخيل ويربى الفقراء المعيز ويعيشون على الحشائش ·· حتى جاء السد ··

ومازال السيل القديم بآثاره قائما ·· كميات من النخيل والبيوت الصفيح وبيوت رصت أحجارها باليد ·· ولكن بجوارها تقوم الآن أكثر من مائة عمارة ضخمة ·· كل عمارة بها أكثر من عشرين شقة كل شقة مكتظة بالعمال والفنيين والملاحظين والمصريين والروس ··

وكنا قد ذهبنا الى العمارة رقـــم ٤٥ لنلتقى ببعض الرجال الذين يصنع منهم مركز التدريب أبطالا للسد ·· وكان باب شقتهم مفتوحا ، تتصاعد منه ضجة كالحريق ·· وترددت أصوات ضاحكة وخشنة وشابة ومرحة تدعونا لتناول الشاى ·

والشاى فى حر أسوان اغراء لا يمكن مقاومته ··

كان « كوز » الشاى يغلى فوق ســـخان صغير بالكهرباء بجـوار الباب ·· وأمامه تجمع عدد من الشبان ·· اغلبهم فى نصف ملابســهم وأحدهم كان عاريا تماما ما عدا شورت صغير ··

وفى ٢قل من ربع ثانية كنا وسط الحريق ·· الجميع يتحدثون فى نفس واحد ، وبفم واحد ، الحلاقة غالية جدا هنا ، واحنا مرتاحين من كل حاجة ما عدا الغسيل هو المؤلم وهو المشكلة ·· وأغلبهم كان فى حالة غسيل للملابس ونشرها ··

كانوا جميعا « ايرادا » جديدا لمركز التدريب ·· لم يمض عليهم عشرون يوما بعد ·· ما زالوا يحملون ذكريات القطار الذى جاءوا به ·· قال أحـــدهم ·· وأنا جاى فى القـطر ليس فى دماغى قفص قوطة من الزحمة ، وقال آخر وانا بقالى خمسة أيام فقط فى مركز التدريب ، ولسه ماستلمتش الشغل فى الموقع ومعايا دبلوم برادة ، وقال الثالث أنا عمرى ماجيت أسوان أبدا · وكنت جايب معـــايا حلة طبيخ آكل منها ولكنها باظت فى السكة ··

شلة رائعة من الشباب ·· لم تنبت شواربهم بعد ·· كلهم يتكلمون فى آن واحد ·· وكان من المستحيل أن نستمر هكذا ولا بد أن نتعارف أولا على الاقل بالاسماء ·· وجاءت أكواب الشاى على ورقة كرتون كانت فى الاصل نتيجة قديمة ·· وبدأنا نتعرف ··

الاول اســـمه عبد العزيز مصطفى عمره ١٨ ســـنة ، ومن كفر المصيلحة ، دبلوم برادة من شبين الكوم ، متوسط القامة ، أسمر ، ذكى، متحمس · قال : وصلت الى السيل من أسبوع · وسكنت مع زملائى دول ولم أكن أعرف واحدا منهم من قبل ، وما زال الحنين الى أهلى بيعذبنى··

وقاطعه زملاؤه ، وأسرعوا يحضرون الينـــا عشرة خطـــابات مغلقة وعليها ورق البوســتة وقالوا : أهو كل يوم بيكتب جوابات بالطريقة دى لكن الجواب ده هو المهم ·· وضحكنا ·· وسكت هو لحظة وقلنا له هل تستطيع أن نقرأه ·· فأجاب بسخاء شديد وبعد تردد ، ممكن ، أقدر اكتب غيره الليلادى ! ·

الثانى محمود الشريف من برمبال القديمة مركز دكرنس ، ١٩ سنة ، تخرج من قسم البرادة ، «وكان الشغل قدامى فى مضرب أرز بينه وبين بيتنا خمس دقايق مشى ، ولكنى رفضت ، عاوز الخبرة فى السد ، بقالى هنا ١٦ يوم ، شفت الانفاق لاول مرة فى حياتى ، أنا أحب الحياة الصعبة ··»

وتدخل الشاب الاول صاحب الجواب وقال أنا شفتها من سنتين ،

وبقالى سنة أعرفها وعندى ثقة انها حتنتظرنى ، أجمل حاجة فيها عينيها متستاق لها جدا اسمها سناء بس اوعوا تكتبوا ان اسمها سناء ·· وقاطعه محمود مرة أخرى : ما تصدقهوش ·· أنا أجيبلكم الفصة اللى جايب منها الالفاظ الشاعرية دى ·· قصة بين الاطلال ··!

وواصل محمود الشريف كلامه ·· أنا أحب الحياة الصعبة ·· لما كنت فى الاعدادية شـــفتها لاول مرة وأنا فى الطريق الى مدرســـتى ·· اعجبت بها ، ببادلنا نظرات الاعجاب ، وكنت في بلدنا وسيم جدا ·· وظللنا شهور نتبادل النظرات فقط ونتغذى عليهـا دون بلمه واحدة · أحيانا ابتسامه يغطيها حيـــاء شديد ، حلوة جدا والله ·· ولم يتركه ابراهيم عبد الجليل يكمل حديثه فقال ان قصه محمود طويله جدا ·· ده احنا كنا بنبعتلها جوابات باسمه ·· أصله زميلنا ولازم نساعده طبعا كنا بنبعت لها جوابات مع طلبة تانيين قرايبه ، كل الناس كانت عارفة، أصل أنا بلدياته ، كنت معاه فى البلد ، والدتها كانت عارفة ·· شوف صورتها (وأرانا صورة مكتوب عليها : للذكرى أهدى صورتى الى أملى وحياتى ومنى قلبى حبيبى الغالى محمود الشريف) ·· وتناقلت الايدى الصورة وقال أحدهم دى بتاكل رز كتير ! وترك محمود الصورة لزملائه والتفت الينا : عجبنى فيها شعرها وعينيها ·· وأدبها واخلاصها الشديد لى ·· أجمل بنت فى الدنيا ·· (ثم بعد لحظة وهو فى قمة انفعاله) أنا باحلم أخترع حاجة فى صنعتى لسه ما تعملتش ··!

الثالث أو الرابع ، لم نعد ندرك ، اسمه عبد المنعم عبد المطلب ، ولد فى البراجيل وعاش فى العجوزة ، وتعلم فى صناعات شبرا عمره ١٩سنة أيضا .. « وصلت هنا من عشرين يوما . والتدرب الآن فى المركز لاعمل فى خطوط الكهرباء ،بيقولوا فيه طريشه هناك وتعابين ولكن أنا مبيهمنيش حاجة ·· جيت قبل كده من ٩ شهور فى رحلة مع المدرسة وشفت السد، ومن يومهـا قررت العمل هنا ، شفت عربيـات الماز الكبيرة والأوناش والشغل الجبار ·· بلعب ملاكمة ، وعندى سبع اخوات ونفسى أشتغل وأترقى لغاية ما أوصل وأبقى مهـــندس ، متعجبنيش بنات القاهرة ، خاطب واحـــدة قريبتى من الفلاحين ، الناس كلهـــا بتقول انى مش حتجوزها ، لكن أنا حجوزها · فى وقت فراغى بغسل هدومى ··

وقال ابراهيم عبد الجليل أنا فوجئت لما شفت مدينة السيل وكيما بالنسبة لبلدنا ·· أنا صدمت فى حبى وعشان كده مش ححب تانى ··

طموحي أعمل عمل كويس ، في أي مجـــال أكون فيه لازم أسد ولازم أحافظ على سمعتي ٠

أكبر هذه الشلة ســـنا هو أحمد دسوقي ٢٣ سنة ، مواليد اسنا وعاش في القـــاهرة ، وأخذ الدبلوم من زين العـــابدين ، وسيعمل في الخطوط ، كان أمامي فرصة للعمل في القاهرة ولكني فضلت السد لابدأ حياة جديدة ، السد بيعلم الصبر ، أحب أقرأ : لطه حسين والسباعي ، وأحب الـكتب الحزينة ، واللي فيهـا الم ، اتجاوب معاها ، المعذبون في الارض ، بين الاطلال ، في بيتنا رجل ، احنـا مدينين بكل شيء للرئيس جمال ، لولا هذا الرجل ما تحققت كل هذه الأشياء العظيمة٠٠ المجد اللي بيتبنى هنا في السد٠٠ حياتنا هنا مشتركة عايشين سوا ، بنطبخ وناكل سوا ، وكلنا متفاهمين أعمارنا وميولنا متقاربة ٠٠ ساعات بنتخانق على غسيل الطبـــاق ، وعلى ملو الزير ، وعلى اللي ينزل يشترى الجـــاز لاننا عايشين في خامس دور ، وتخريط البصل بالقرعة ، ميزة الحياة الجماعية ان احنا بننسى الجو اللي كنا فيه ، وبنندمج في الجو الجديد اللي احنا داخلين عليه ، احنا بالذات بنعاني من مشكلة الحنين للاهل وللبلد وللحب وللحياة اللي عشناها طول حياتنا ، والحياة الجديدة صعبة شوية عاطفيا ولكن لاننا مع بعض ولاننا بنشتغل لمستقبل البلد كلها ده بيســـهل الامور ٠

أقدمهم في الشقة ــ ٢٢ يوما ! ــ اسمه سعيد عبد ربه ٢٠ سنة من مليج مركز شبين الـكوم ، براد أيضـــا ، ويتـــدرب على تركيب مولدات الكهربا ، قال : أنا زرت أول ماجيت خزان اسوان، الخزان ما اشتركناش فيه احنا المصريين بنفس القدر اللي بنشترك فيه دلوقت فيالسد العالي٠ قال أنا ماشفتش والدي أبدا ، مات قبـــل أن أولد بشـــهر ، عمي ربانى وتزوج والدتي بعد افاته ، الجميل ده مش ممكن أنساه أبدا ، لازم اشترك في تربيـــة اخواتي وحربيهـــم لان عمي كبر في السن دلوقت ، أنا جيت اسوان عشان اقدر أوفر من مرتبي وأساعدهم ، هوايتي سباق الدراجات اشتركت في بطولة المنوفية ، وطلعت الاول ، أنا بطل المنوفية الاول لمدة ٣ سنوات واشتركت في سباق الجمهورية وطلعت التاسع في ١٢٥ كيلو ، السبب الوحيـــد الذي جعلني لا أحب هو أن عمي كانت صـــحته ضعيفة فكنت آجي من المدرســـة اروح على الغيط افلح وبعـــدين اخذت الدبلوم وجيت على هنا ٠

آخر واحد منهم اســـمه صابر عبد المعطي الشريف ٢٠ ســـنة من

جنزور مركز بركة السبع كنت متوقع اسوان دى قرية بيوتها فى الجبل. ماتوقعتش أبدا أن أرى العمارات دى ، ولا المساكن ولا المحلات التجارية الكبيرة ، لما شفت السد فوجئت مرة أخرى . دى أول مرة اشوفه . اهلى اروح بعثة ، جيت هنا عشان الخبرة . عاوز خبرة ، وخصوصا ننا مكن متنوع وكله جديد على بلدنا ·

***

هدأت الضجة ، وشربنا دور ساى جديد ، وانطلق صوت أم كلثوم من الراديو الترانزستور وفتحنا جواب عبد العزيز لنقرأه ··

عزيزتى سناء ··

تحياتى واشواقى الزائدة ارسلها اليك يا عزيزتى بعد سفرى الى اسوان بلد السد العالى بلد النخيل والكفاح ، من أجل معيشة أفضل تحياتى العاطرة أرسلها اليك يا أعز الاحباب، اليك يا هدى الانوار. اليك يا عزيزتى أننى أقدم أسمى آيات التقدير واهديها لك وللاسره جميعها والوالدة، سلام كثير اليها والاخت سوسو سلامى اليها وتحيانى وسلامى لمحمد وعلى ·

وبعد ··

لقد سافرت من بلدكم وأنا كنت فى منتهى الزعل لفراقكم بعد أيام سعيدة أيام احملها دائما هنا فى ذكرياتى واتذكرك دائما يا صديقتى العزيزة ولكن أنا قبل سفرى لن أتمكن من لقائكم لانك أنت عارفة يا سناء آه ، وأنا لن أريد اى زعل علشانى يكون بينكم وأنا صابر لآخر لحظة عشان نتقرب من بعض ونكون حياة سعيدة وأيام جميلة وربنا يوفق فأرجو الا تكونى زعلت علشان كده وارجو ان تتذكرينى دائما مثل ما انت دائما فى ذاكرتى وفى تخيلى كل دقيقة يا عزيزتى ·

وبعد ··

عزيزتى سناء ، أنا هنا ساكن فى شقة مكونة من ثلاث حجرات (لم يقل انه مع أكثر من عشرة زملاء فى نفس الشقة ··) وصالة ودورة مياه والشقة مفروشة .. ! بجميع أدوات المطبخ وعندى سخان بالكهرباء كمان .. ! والحياة هنا كويسة جدا ولا ينقصنى غير رؤياك يا عزيزتى .. وأريد أن القاك فى القريب العاجل انشاء الله وانا الآن أتقاضى مرتب كويس جدا وأنا فاتح دفتر توفير وعامل جمعية

بحوالى ٣٧ جنيها ، كل شهر تلاتة جنيهات وأنا سأدع فى مكتب التوفير ٥ جنيه كل شهر غير الجمعيـــة لانى أتقاضى مرتب شهرى الآن ١٥ جنيها لمدة ثلاثة شهور وبعد ذلك ١٨ جنيها وبعد ذلك ٢٢ جنيهـــا أى فى شهر مايو ١٩٦٦ (حسب الحسبة بعد استلامه العمل باسبوع واحد ولمدة سنة قدام !) ٠٠ وأنا سعيد جدا ولكن حزين جدا على فراقك يا عزيزتى ولكن اتمنى أن أغمض عينى وأفتحها على لقاك ولكن اننى أطلب منك شىء وهو أملى هنا ، وأنا أعيش على ذكرياتى وهو اننى أطلب صورة منك ياعزيزتى فى القريب العاجل فى خطاب مهما كلفتك الظروف وقولى لماما وهى مش راح ترفض ياسناء أنا واثق من ذلك ، وقبل أن أختم خطابى أقول لك ياعزيزتى اننى أريد ان خطاباتى التى ارسلها اليك لا أريد أحدا مهما كان قريب أو بعيد ٠٠ أن يقرأها أو يعلم بأى شىء يا عزيزتى ٠

وفى الختام تقبلى تحياتى وأشواقى الزائدة اليك يا عزيزتى ٠

عبد العزيز

العنوان : اسوان ــ السيل الجديد ــ عمـــاره ٤٥ شـــقة ١٩ عبد العزيز مصطفى عمر ــ ارسلى الرد على هذا العنوان حتى ولو سرقة من وراء ماما ... !

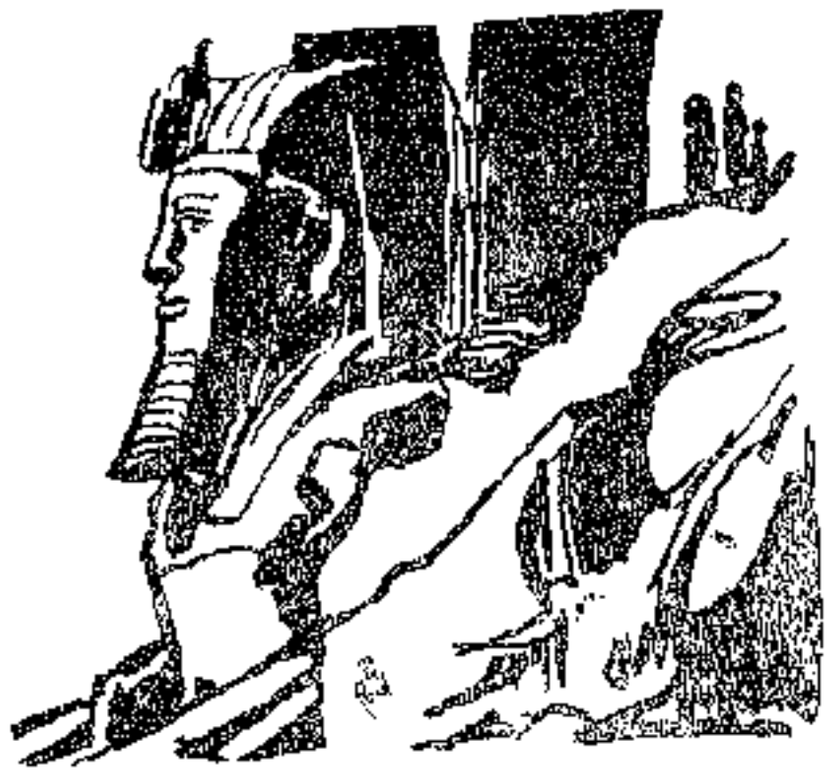

الصعود

منذ اللحظة التى تبتعد فيها عن الســد جنوبا ــ فى بحيرة ناصر ــ ليس هناك غير الماء والشمس ٠٠٠ والاطلال !

والأطلال هى بقايا القرى النوبية القديمة التى تتناثر على اليمين وعلى اليسار ٠ معظمها تغطيه المياه ٠والباقى ينتظر دوره فى هدوء واستسلام المحكوم عليه بالاعدام ٠

ومنذ اللحظة الاولى التى تظهر فيهــا بقايا قرية دابود ، تبــدأ تلك السلسلة الاسطورية من معابد النوبة ٠

ان شــاطىء النيل من الســد حتى اسوان أشــبه بصفحات كتاب تاريخى ضخم افتتحته مشروعات المياه ٠

فمنذ خزان اســوان عام ١٩٠٢ والفيضانات المتتــالية كانت مياه التخزين تهدد بغمر المعابد بل وكانت تغمرها بالفعل تمــاما معظم شهور السنة دون أن يفكر أحد فى أمرها ٠

وربما كانت هذه الخزانات والسدود هى المسئولة عن الابحاث والدراسات والاكتشافات التى ارتبطت بعملية انقاذ المعابد ، والتى دارت سنوات طويلة اشترك فيها علماء الآثار المصرية من جميع أنحاء العالم ٠

***

ان أول صفحات هذا الكتاب تبدأ من عند اسوان ٠٠ من جزيرة فيلة أولى ضحايا النيل العظيم ٠

لقد كانت جزيرة فيلة هى الحد الطبيعى بين مصر والنوبة ٠ وفيها أحد مدافن الاله أوزوريس وزوجته ايزيس ٠ وكان سكناها فى القديم وقفا على الكهنة ٠

وبجوار معبد ايزيس تقوم اطلال كنيسة لماريا العذراء .. !

والواقع أن جميع الحضارات قد توالت على النوبة · من فرعونيـة ويونانية ورومانية وقبطية وعربية وعثمانية ومملوكية ·

وربما كان السبب فى ذلك أن النوبة كانت فيما مضى همزة الوصل بين مصر وقلب القارة الافريقية ، معبرا للقوافل التجارية ومفتاحا لقبائل الغزاة · وكانت فيها منـاجم الذهب ومحاجر الديوريت المتين ، وكانت ايضا موردا لا ينضب من الرجال للجيش وأعمال السخرة ·

فبجوار مقـابر البليمى ـ ملوك النوبة القدماء ـ فى بلانة ، كنيسة قديمة اسفلها كنيسة أخرى فى باطن الارض بناها المسيحيون فى عصور الاضطهاد الرومانى ·

وفى ابريم بقايا مسجد أقامه المماليك أثناء اقامتهم فى النوبة بعد هروبهم اليها عقب مذبحة القلعة ، وأسفل قصر ابريم معابد صغيرة من مصر الدولة الحديثة ثم كنيسة قديمة بداخلها سرداب يؤدى الى كنيسة أخرى ·

وفى عنيبة الفا مقبرة يرجع تاريخهـا الى سـنة ٢٠٠٠ ق.م. وبجوارها مقابر الجنود اليوغوسلاف (اقليمى البوسنة والهرسك وقتها) الذين أرسلهم السلطان سليم فى حملة لفتح النوبة ·

وفى توشكى مقابر ضحايا المعركة الفاصلة التى دارت بين دراويش السودان ـ بعد استيلائهم على السودان اثر الثورة المهدية ـ وبين الجيش المصرى بقيادة جرانفيل·· التى دارت فى يوليو١٨٨٩ وقتل فيها التجومى زعيم الدراويش ·

ولكن أروع هذه الآثار ، وأحدثها اكتشـافا ، هى ٤٠٠٠ لوحة نادرة من العصر الحجرى غيرت كل المعلومات الاثرية المعروفة · وأجملها اللوحة الصخرية بكورسكو ، وهى أول لوحة يعثر عليها فى العالم ، رسمها انسان العصر الحجرى القـديم منذ أكثر من عشرة آلاف سـنة ولا زالت ألوانها ثابتة الى الآن ·· ووزن هـذه اللوحة أربعة أطنـان ، وقد سجل عليها الانسان القديم رسوما لعجل البحر والسيد قشطة الذى يبدو أنه كان يمثل خطرا بالغا على حياته ، فرسم له صورة يسخر فيهـا منه ، اذ رسم غزالا يمتطى السيد قشطة ويسوقه كما يريد .. !

***

الا أن النوبة ارتبطت تماما باسم رمسيس الثانى ··

فهو صاحب أغلب المعابد المقامة بها ..

وهو صاحب معبدى أبو سمبل الهائلين ..

ان عدد المعابد التى أقامها رمسيس الثانى فى النوبة تسعة معابد من الشلال الاول الى الثالث .. بل ان آثار رمسيس تمتد من انهار لبنان حتى السودان .

وبينها ينتصب معبد أبو سمبل فريدا فى تصميمه الخارجى بالغا فى روعته ، يكاد يكون الاثر الوحيد من نوعه فى العالم .

وتتصدر أربعة تماثيل ضخمة لرمسيس واجهة المعبد الكبير . اثنان على كل جانب من المدخل وفوقهـا حارسها رع ــ هوراختى الذى يحمل رأس صقر ويضع فوقهـا قرص الشمس والافعى المقدسة ، وبين أقدام التماثيل الاربعة تنتشر تماثيل الملكة نفرتارى والامراء والاميرات .

وفى أعلى الواجهة يمتد صف من القرود تهلل للشمس .

فهى فى وضعها هذا أول من يلتقط أشعة الشمس كى يطمئن الملك الذى كان يخشى دائمـا غروب الشمس . ذلك أن الشمس كانت تغرب دائما فى العالم السفلى .. ولهذا جعل المدخل بحيث تسقط عليـه أشعة الشمس الاولى مباشرة .. وهذه هى معجزة المهارة التى حققها الفنانون المصريون القـدماء عندما حفروا ١٨٠ قدما فى الصـخر ، فى خط موازٍ لاشعة الشمس ، التى تتسلل ايضا الى داخل المعبد .

وفى الداخل ، على جانبى البهو الرئيسى ، تنتصب ثمـانية تماثيل كبـيرة لرمسيس فى صـورة اوزوريس .. فرمسيس لا يكف أبدا عن التقرب من الآلهة والتمسح بها بل والجلوس بجوارها .

ففى حجرة المعبد الخلفية قدس الاقداس ، يجلس أربعة من الآلهة على عرش ضخم فى كبرياء وقد نحتوا جميعا من الصـخر الحى .. آمون رع ، رع هوخارتى ، بتاح ... ورمسيس !.

ان أشعة الشمس لا تصـل الى قدس الاقداس الا يومين فقط فى السنة هما ٢٣ فبراير و ٢٣ أكتوبر .

ولقد رأينـا الشمس تضىء قدس الاقداس بأشـعتها لاول مرة فى التاريخ .. فى أغسطس الماضى .. عندما رفع عمال الانقـاذ سقف مقر

الآلهــة العتيــد ٠ وظهرت لأول مرة فى جلاء تام الالوان الشــاحبة التى استخدمها الرسامون منذ أكثر من ٣٢٠٠ سنة ٠٠

ومن قدس الاقداس تقودنا الارضية البالية الى أصغر القاعات التى يستند فيها السقف الى أربعة أعمدة مربعة حفرت عليها صور رمسيس مع الآلهة وهو يقدم القرابين الى ايزيس ومين ــ آمون ٠٠ والى نفســه٠٠!

فبينما كان رمسيس يبنى أبو سمبل اكتشف فى نفسه الها جديدا ٠٠ فشرع يجرى تعديلات فى نقوش المعبــد ٠٠ وحشر نفسه حشرا بين الاله مين آمون وايزيس وبين آمون وموت ٠ وكانت موت جالســة على مقعد خلف زوجها ، فجعلها المثالون تقف ليفسحوا مكانا لرمسيس ٠

وتنبض القاعة الثالثة بصور الحركة والحياة والحرب ٠٠ فهنا يبدو رمسيس مع صف من بناته العديدات يعزفن على اداة موسيقية ، وفى صورة أخرى يبدو رمسيس فى ضعف حجمه٠ يضرب مجموعة من الاسرى الآسيويين على رءوسهم بصولجانه ٠ وتتتابع النقوش التى تروى تفاصيل معركة قادش التــاريخية التى افلت فيهــا رمسيس من هزيمــة محققــة بشجاعته وجسارته ٠

ويروى أحد نقوش هذه المعركة الفصــل الختامى منهــا ٠٠ عندما عقدت أول معاهدة دفاع مشترك وعدم اعتداء فى التاريخ ٠٠!

فقد أرسل الحيثيون وفدا لعقد المعاهدة التى نصت على ألا يغزو أحد الجانبين الآخر ٠٠وأن يتبادلا المساعدة فى حالة وقوع عدوان على أى منهما من دولة أجنبية ٠٠!

***

وعلى مبعدة خطوات من المعبد الكبير يقوم معبد أبو سمبل الصغير٠٠ الذى أقامه رمسيس تكريما لنفرتارى أحب زوجاته اليه ٠

ويتصدر رمسيس واجهة المعبد الصغير بالمثل ٠٠ ولكنه يقف هذه المرة وبين تماثيله الأربعة تمثالان لزوجته ــ لأول مرة فى مثل حجمه ــ بردائهاالشفاف وشعرها المتدلى على كتفيها ٠٠ وقرص الشمس على رأسها ٠٠ وحول سيقان التماثيل الضخمة يقف أطفال صغار فى ارتفاع الركبة ٠٠ وفوقهم نقش يقول للعالم : « ان رمسيس جعل هذا المعبد فى شكل حفر فى التل كعمل خالد فى أرض تاستين ولم يصنع شىء مثله من قبل».

لقد مات رمسيس بعد حياة طويلة استمرت ٩٢ سنة ..

وعلى سيقان تماثيله حفر الكثيرون بعده اسماءهم طمعا فى الخلود .

ولقد تحقق لهم ما أرادوا .

فطوال قرون . كانت الرمال تغطى المعبدين وتحميهما من مختلف الغارات والاعتداءات التى اطاحت بالكثير من الآثار ، بل ظلا مجهولين تماما من العالم حتى تم اكتشافهما فى عام ١٨١٢ ..!

ولكن.. هل يقوم مئات العمال المصريين ومعهم خبراء من جميع أنحاء العالم بانقاذ المعبدين والصعود بهما فوق الجبل .. كى يضمنوا الخلود الأبدى لتلك الوجوه الضخمة التى تبتسم للشمس والرمال فى دعة وثقة تثيران الاستفزاز .. ؟

كلا .. لسبب بسيط تماما ..

فان من يقف أمام هذه الرءوس الضخمة لا يملك الا أن يفكر فى الخمسة والعشرين الف عبد مصرى ، الذين نحتوا هذين المعبدين فى الجبل وعملوا بصورة متصلة لمدة ثلاثين سنة ، ليذيبوا فى أصابعهم، التى كانت تتحسس الصخر فى حب ، كل ما كانوا يعانونه من ذل وعبودية، وليتحدوا العالم بمعجزة صخرية لا زال يجهل كيف حققوها بوسائلهم البدائية المتخلفة .

ان المهندس العادى عندما يضع تصميم اى بناء ، يضعه على ارض خلاء يستطيع ان يراها ويعاينها .. فيضع الخطوط والتصميمات ثم يبدأ البناء .

ولك ان تتصور اناسا يخططون ويرسمون وينفذون البناء فى وقت واحد فى كتلة صخرية صماء لا ترى أعماقها على الطبيعة ، دون ان تكون لديهم آلات الحفر التى تعمل بالضغط وبالكهربا أو الاشعة التى تخترق المكان وتكشف عن طبقاته الجيولوجية وطبيعة تكوينه .. لاشىء سوى الفئوس والمزاميل والمقاطف .. !

هؤلاء هم الذين نرفعهم الآن فوق الجبل .. !

***

وقد بدأت قصة انقاذ أبو سمبل منذ اللحظة الأولى للتفكير الجدى فى مشروع السد .

كان من الواضح ان السد يهدد ٢٣ اثرا هاما فى المنطقة بالغرق ..

وكان هناك بصيص من الأمل .. فهذه الآثار كلها مبنية من الحجر فلماذا لا نرفعها من مكانها ونقيمها فى مكان آخر ..؟

وهذا ما حدث بالفعل ..

وبدأت العملية فى عام ١٩٦٠ بانقاذ معابد تافاه ، ودابود وقرطاس ثم الدكا ودندور والمحرقة فى ٦٢ وكلابشة فى ٦٣ وقد أقيم من جديد الى جوار السد مباشرة ومعبد عمدا الهائل الذى نقل فى ٦٤ على عجلات تجرى فوق قضبان بسرعة ١٠ سم كل ٨ ساعات ..!

وفى ٦٥ حل الدور على معبد الدر واللوحات الصخرية فى معبدى جرف حسين وابى عودة .

كان المعبد يفك الى قطع صغيرة مرقمة تنقل الى مكانه الجديد فى اعلا ثم يعاد تركيبها هناك .

أما ابو سمبل فكان قصة أخرى .. لأنه كان منحوتا فى الجبل .

وتتابعت المشاريع المختلفة لانقاذه..مشروع ايطالى بوضع المعبدين فى صندوقين هائلين .. ومشروع فرنسى ببناء سد يحيط بالمعبدين .. ومشاريع فردية مثل مشروع ماكوينى .. وأخيرا المشروع السويدى الذى أقر فى النهاية .

***

واجتمعت لجنة خبراء برئاسة البروفسور ميخالوفسكى ، أستاذ الآثار المصريةبجامعة وارسو ، وعضوية أنور شكرىالأثرى المقيم ، وقررت ألا يزيد تقسيم المعبدين عن ١٢ الف قطعة يتراوح وزن كل منهـــا بين ٢٠ و ٣٠ طنا .

وبدأ العمل فى تخليص المعبد .. فنحتت محاريث الصـــلب فى الجبل لتصل الى سقف المعبد حتى وصـــلت الى صف القرود التى تهلل للشمس كل صباح ، وفى أغسطس ٦٥ توقفت المحاريث لتبدأ المناشير الكهربائية الدقيقة عملها .

وكانت العملية دقيقة للغاية ..

فعندما تم تخليص المعبد نهائيا من الجبل ، وأصبح يقف وحده لأول مرة فى التاريخ ، وضع العالم كله يده على قلبه .. فقد كان الخوف ان

يتمدد المعبد وينتفخ بعد أن تخلص لأول مرة من ضغط الجبل ·· أو يحدث العكس فينكمش وفى كلتا الحالتين ينهار ·

ولكن العملية الوقائية التى اتخذها الخبراء ، وهى ربط المعبد من الداخل والخارج بضغط الهواء على سقالات خشبية وحديدية ، أدت الى ثبات المعبد على حجمه الاصـــلى دون ادنى تغيير الا من بعض الشروخ الحائطية والحالات الطفيفة التى انفصلت فيها الرسوم عن الحائط وكلهـا حالات عولجت بسهولة ·

وكانت المعامل الكيماوية تدرس جميع أنواع الصخور التى يتكون منها المعبد لمعرفة مدى تحملها لعمليات القطع وكيفية تفويتها ·

وفى سبتمبر ١٩٦٥ انتهى تقطيع المعبدين ورفعهما ·

وعندما تقرأ هذا الكلام يكون قد بدأ العمـــل فى تركيب المعبـد الصغير ·· ويستغرق ثمانية شهور وفى أغسطس ٦٦ يبدأ تركيب المعبد الكبير ·· ويستغرق تركيبه ١٤ شهرا ·

ولا بد ان تكون قطع المعبدين فى موقعهما الجديد فى أول أغسطس سنة ١٩٦٦ قبل ان تصل مياه الفيضان فى سبتمبر الى منسوب ١٣٣ ثم يقفز فجأة فى ديسمبر الى ١٤٤ فتبتلع المياه الموقع القديم ·· ومعه السد الصغير الذى انتهوا من بنائه قبل مجيئنا بشهر وتكلف ٢ مليون جنيه ·· ليذوب مع فيضان ٦٦ ·· !

**

ان ١٢٠٠ عامل مصرى مع ١٠٠ موظف ومهندس وخبير اجنبى من بلجيكا وفرنسا والسويد والمانيا الغربية وايطاليا ، يعملون ثلاث ورديات فى اليوم ، ولا زالت امامهم عدة سنوات أخرى قبـل ان ينتهى العمـل الكبير ·

وتضم الشركات الاتحادية شركة مصرية تشـترك فى الانقـاذ بفرع منها ، والفرع الآخر يقيم المدينة الصغيرة الانيقة فوق جبل الشيطان ·

**

والمدينة الصغيرة تغرق نفسها فى العمل كى تنسى وحدتها ··

تنس الطاولة هو التسلية الوحيدة ·· الراديو لا تتبينه جيدا ·· السينما نادرة ·· والافلام لايراها سوى الخبراء الاجانب وبعض الموظفين

والمهندسين المصريين ، بينمـا يقبع ١٢٠٠ عامل مصرى فى منازلهـم ·· غالبيتهم لا تزال تقيم فى الخيام حتى الآن فى انتظار انتهاء المبانى ·

والجو الذى يسود أبو سمبل جو غريب جدا ·· تشعر بغرابته عندما تكون قادما من السد ·

الهدوء ·· علاقات محددة ··عمل سينتهى بسرعة ليعود كل انسان الى حاله ·· الاجانب اجانب بالفعل · أروعهم السويديون · ويأتى الالمان فى آخر القائمة ·

وفى الجمعية التعاونية التى تزدحم بمختلف البضائع ولا ينقصها شىء شـاهدنا فتاة المانية جميلة تعنف البائع بعنجهية أميرات القرن الرابع عشر ·

وقال لنا المهندس أمير أبو الوفا ·· ان الالمان هكذا دائما ·· وروى لنا كيف انتقم العمـال المصريون منهم عندما قطعت بلادنا علاقاتهـا الدبلوماسية مع المانيا الغربية ، فأخذ العمال سيارات المرسيدس الكبيرة وطافوا بالبلدة الصغيرة يهتفون بحياة ناصر ويلوحون بقبضاتهم فى وجه الالمان ··!

***

وعندما تتحرك بك الدكة ـ وسيلة المواصـلات الوحيدة الى أبو سمبل ـ لتعود بك الى السـد لا تملك الا ان تتنهد فى ارتياح وشـاطىء جبل الشيطان يتراجع أمامك ·

كأنما تغادر دنيا الموت ، وتعود الى الحياة من جديد ·· !

ـ ٢ ـ

وفى رحلة العودة كما فى رحلة المجىء ، تمر بابواب ونوافذ القرى النوبية القديمة التى تحدق فى صمت أسود رهيب ·

وتتـذكر رمسيس الذى كان يقبض على رءوس الاسرى النوبيين ، والنوبيين الذين يجرون أمام عربته الحربية ·

وتتذكر آلاف المعـارك الدامية التى دارت حـول ابريم والدكة وغيرهما ·

فمنذ غزا سنفرو ، آخـر ملوك الأسرة الثالثة ، بلاد النـوبة وعاد بسبعة آلاف أسير نوبى و ١٠٠ر٠٠٠ رأس من الماشية ، وصفحات تاريخ النوبة تكتب بالدم ٠

منجم للذهب والرجال ٠٠ هكذا كانت النوبة دائما ٠

***

وفى هذه القرى الصغيرة كان النساء ينتظرن فى رهب ، سنوات طوال ، الرجال الذين سافروا الى القاهرة والاسكندرية ليعملوا خدما وبوابين ولم يعودوا، وكان الاهالى يتوجسون رعبا من الفيضان والتحاريق والذئاب التى تخطف الاطفال والعقارب ، ولم يحدث أبدا أن شاهدوا سيارة ولم يروا الكهربا الا فى السفن التى كانت تعبر قراهم ليلا ، وكانت هذه السفن ــ التى تأتى مرة كل أسبوع ــ هى نافذتهم الوحيدة على العالم ــ يجرون الى الشاطىء لينتظروها وينتظروا معها الاخبار والرسائل ٠٠ والرجال الذين لا يأتون ٠

ان نصف ساعة بالأوتوبيس من اسوان تكفى الآن لتنقلك الى أقصى أطراف النوبة ٠ الجديدة ٠

وتكفى ساعة ونصف الآن كى يذرع النوبى كل قرى النوبة بالطول وبالعرض ٠

ففى ١٨ اكتوبر ١٩٦٣ صعد ٥٧ ألفا من اهالى النوبة شمالا فى الوادى الأخضر الى قراهم الجديدة ٠٠ حاملين معهم أكياسا من تراب الوطن القديم وحجارته ٠

***

وليست هذه هى المرة الأولى التى تؤثر فيها مشروعات النيل على حياة النوبيين ٠

ان المتقدمين منهم فى السن لايزالون يحكون عن خزان أسوان ، عندما طردتهم المياه من مساكنهم وجعلتهم يصعدون الى أعلى فى النهر ، أو يهربون الى أقصى الشمال ٠

فى تلك الايام كانوا حقا ضحايا النيل .. فلم يلقوا أية عناية وكانت التعويضات التى صرفت لهم هزيلة تماما ٠

وكانت المأساة تتكرر فى كل تعلية ٠

ولعلها أول مرة فى حيانهم تلك التى وقف فيهـــا الرئيس جمـــال عبد الناصر يتكلم اليهم فى سنة١٩٦٠ ويقول لهم: ان المصريين والنوبيين أسرة وأحدة وان العزلة التى عاش فيها النوبيون منذ القدم قد آن لها ان تنتهى ٠

واختار النوبيون منطقة كوم امبو شمال اسوان لتقام فيها قراهم الجديدة بنفس الوضع الجغرافى القديم ، ونفس الاسماء ٠

وانقضت مياه السد العالى على الاربعين قرية القديمة تغرقها لتصنع منها أكبر بحيرة صناعية فى العالم مساحتها ٤٠٠٠ كيلو متر مربع ٠٠ وعرضها ثمانية كيلو مترات وطولها ٥٠٠ كيلو متر ٠

***

وفى بلانة الجديدة شربنا الشـــاى النوبى بالنعناع وتجولنـا فى المدرسة والمستشفى الصغير الحديث ، والمشـــغل حيث يعلمون الاطفال الصناعات اليدوية والسجاد ، ويعطونهم اجر ما يصنعونه ، وعلى مشارف القرية حيث تمتد الحقول الخضراء لاول مرة منذ آلاف السنين ٠

ورأينا الجمعية التعاونية ، ودكاكين البيع ، والمخبز ومكتب البريد والتلغراف والتموين ، والبنك ٠

ونحن نذكر مثل هذه الأشياء لأن القرى القديمة لم تكن تعرفها على الاطلاق ٠

فلم يكن فى النوبة كلها غير مستشفى عنيبة ٠ ومركب عائمة بهـا وحدة صحية ترسو على شاطىء كل منطقة شهرا ٠٠ فتعود الناس على العلاج بالاعشاب ٠ وتصوروا حالة مصران أعور فى «ادندان» ٠٠ وبينها وبين عنيبة ١٢٠ كيلو ، أى يومين فى سفينة أو ثلاثة على حمار ٠٠ !

وفى النادى التقينا بالرجال ٠٠

كانوا يقرءون ويستمعون الى الراديو ٠٠ فى جلاليبهم الناصـــعة البيضاء ووجوههم السمراء النظيفة ٠٠ لم يكن بينهم شاب واحد ، فقد كانوا جميعا من المسنين ، أما الشباب فليسوا فى القـاهرة ٠٠ انهم اما فى الحقول المجاورة أو المصانع أو فى السد ، فلـكل أسرة خمسة أفدنة ومنزل وجاموسة٠٠ بينما تتضمن الخطة الخمسية لتطوير اسوان تأسيس خمسة مصانع فى منطقة كوم امبو خصيصا للنوبيين لاعطائهم فرصـــة العمل ٠٠ مصنع للسكر وآخر لحفظ الخضروات وثالث لتجفيف البـــلح وتعبئته ٠٠ ورابع للالبان والبستوة ٠

كنا نجلس في حلقة واسعة من ذوى الجلاليب البيضاء ..
وجاء ذكر النيل ..
ولمع في العيون وميض رقيق شارد ..
لقد كان الشاب عندما يتزوج يذهب الى النهر وحيدا ، يحمل سيفا وكرباجا ويربطه بسكين ذى حدين على ذراعه الايسر منعا للحسد ، ويغرس سيفه على الشاطىء حارسا له ريثما يستحم فى النيل .

أما الآن فهو يكتفى فى مناسبة الزواج بسيف من الخشب .. فقد ذهب النيل .

وفى قرى النوبة الجديدة تتردد فى الليل الذى ينتظر الكهرباء من السد .. أغنية نوبية تقول :

ارتفع بمياهك الى حد البيوت ..
واضرب بها العتبات فى رفق ..
ولتتعانق انت وهى معا ..
ولتناجها .. وتهمس فى أذنها وحدك . !
فقد تركناها .. لك ..
بلدنا .. يا نيل ..
ورحلنا .. نحن ..

ولا تملك الا ان تشعر بالاسى ، وهو اسى يختفى سراعا عندما ترى الرجال قادمين من السد حيث يعملون ، فى زياراتهم الاسبوعية لزوجاتهم وأولادهم .

***

ان كتابا صغيرا صدر فى عام ١٩٣٣ باسم «صور من حياة النوبيين» لمؤلف اسمه محمد كامل حته ، يبدو من صورته التى تتصدر الكتاب ، انه نوبى ، يبدأ بهذه العبارة :

« للفطرة روعتها وجمالها .. فمن العقوق اذا ان نهمل هذه الناحية من حياة النوبيين . فهناك تجد الفطرة تطبع الحياة بطابع البساطة والجمال وتصبغها بالصبغة الفنية التى تمثل لنا الانسانية فى أطوارها الأولى .. !

وللزراعة أساليبها الفطرية ·· وطعـــامهم فطرى بحت ·· فهم يأكلون مما تنبت الارض ··

« ·· والمرأة النوبية مثـل نادر فى الحيـاة الزوجية ، فهى وفية لزوجها الى حد بعيد ·· فقد تحرم على نفسها لذائذ الحيـــاة طيلة مدة غيابه ، وتتحاشى حتى أكل اللحم او الطعـــام غير العادى ، حتى اذا عاد اليها بعد سنين استقبلته باسمة راضية ، وادت له حقوق الزوجية دون تبرم أو استياء ···! » ·

بل ان مؤلفا آخر هو الدكتور محمد محمود الصياد كتب فى عام ١٩٦٢ ، كتابا بعنوان : « النيل الخالد » أصدرته وزارة الثقافة ، وقال فيه عن بلاد النوبة :

«·· الارض فقيرة وكذلك الناس ، السماء شحيحة لا تجود والارض مجدبة لا تغل ·· ولكن حسب القوم قناعتهم ، والقناعة كنز لا يفنى ! وكفاهم أمانتهم التى اشتهروا بها فأكسبتهم الثقة والاحترام ، انهم أغنياء بجلدهم وكفاحهم فى سبيل العيش، يضربون فى الارض سعيا وراءه···»·

واليك كيف كان يعيش هؤلاء الاغنياء بجلدهم وكفاحهم فى سبيل العيش ·

فقبل عملية التهجير مباشرة قامت وزارة الشئون باجراء مجموعة من الاحصاءات على قرى النوبة القديمة ، لعلها الاولى من نوعها ··

وكشفت هذه الاحصاءات عن حقائق غريبة ··

ان عدد النوبيين كلهم ٤٨ ألف فرد ·· الثلث رجال والثلثين أناث ·· أى ان الاناث ضعف الرجال ·

والـ ٣٠ الف انثى منهن ١٨٤٩ وأحدة لم يتزوجن ابدا ، و ٦٦١٤ أرملة هذا غير المنتظرات ·

وفى كشف لتعداد سن المقيمين ·· يبـــدأ عدد الذكور والاناث متساويا · (ففى سن العشرة أعوام الذكور ٢٦١١ والاناث ٢٧٩١) ثم تقترب النسبة من النصف فى الخامسة عشرة (١٣٦٨ ذكرا و ٢١٧١) وتبدأ الفرجة فى الاتساع حتى تصل الى أكثر من الضعف (فى الثلاثين الذكور ١٥٤٦ والاناث ٤٢٠٥) !

فقد هاجر الرجال ··

ان عدد المهاجرين يصل الى ١٥٥٩٧ رجلا ويبقى فى القرى عشرة آلاف رجل · ولا تخلو أسرة من مهاجر ·

وعندما تبلغ المراة سن الخمسين تتغير النسبة : ١٢٢٠ رجلا و ٢٧٦٠ انثى ·· فقد بدأ الرجال يعودون ·· فى الخمسين ·· ! ·

ولكن النسبة تتغير من جديد بعد عشر سنوات · فتتسع الهوة من جديد بين عدد الرجال وعدد النساء ·· لتعود الى الضعف ·

فما الذى حدث ؟

هل السبب هو زيادة عدد الارامل ·· أو أنالرجال يهاجرون من جديد ؟

هل يهاجر ذو الخمسين عاما من جديد ·· أو أنه يموت بعد رحلة الشتاء والصيف ؟

***

وتصوروا معنا ·· ٤٨ الف رجل هذا هو توزيعهم المهنى ··

مهن فنية وادارية ودينية	٤٥١
تجارة ونقل وصناعات انتاجية	٩٨٦
زراعة	٩٠٩٢
مناجم	٤
لامهنة	٣٥٣١٠ ٠٠٠ ٤

***

لقد فقد النوبيون النيل ·· والسمك ·· والنخيل ··

هذا حقيقى ·· ولكنهم كسبوا حياة جديدة ··

وفقدواحياتهم الفطرية · أو سيفقدونها · وسيفقدون قناعتهم ··

هـذا أيضـا حقيقى .. فلسـوف تندثر حيـاتهم القبلية . وتظهر لهم تطلعات جديدة . فمن رأى عالم البشر يموج من حوله بكل جديد ، وبكل الطيبات ، لن يقنع بالتراب والماء !

***

وقد قضينا فى ابريم ليلة لا تنسى ··

كنا نتناول عشاءنا فى منزل العمدة فوزى مراد ، عندما اقبل رجل غريب ، تائه لا يتكلم ولكنه جلس صامتا ، واحضروا له عشاء .. لم يكن احـد يعرفه ولكنهم مع ذلك اطعمـوه . وقدموا له الشـاى والسجائر ٠

ولم يسأله احد عن اسمه .. وقال انه من قرية بعيدة تدعى « الجنينة والشباك » وانه كان فى السوق ورجع ماشيا فضل طريقه ٠

وعندما فرغ طعامه أعدوا له مكانا ليبيت فيه الى الصباح ..

وهكذا لم يفقـد النوبيون أروع صفـاتهم الفطرية .. التعاون والامانة وكرم الضيافة ٠

وقد كان فى كل قرية قديمة دار صغيرة للأضياف ، من المسافرين والتجار الرحل على الجمال ، يأكلون فيها وينامون ، دون أن يسـالهم احد عن اسمائهم أو القبائل التى ينتمون اليها او القرى التى جاءوا منها ٠٠ وكانت القرية كلها تساهم فى اطعامهم ٠

ولكن القرى الجديدة ليس بها دور للاضـيـاف . فقـد غفل المهندسون الذين بنوها عن هذه الدور . مما احزن النوبيون فى البداية ٠٠ ولكنهم الآن لم يعودوا يهتمون بالأمر ٠٠ فليس هنـاك مسافرون أو اغراب كثـيرون فى المنطقـة ، والرجل منهـم يستطيع أن يسـافر الى القرى الأخرى ليزورها ثم يعود فى نفس اليوم.. اما اذا ظهر غريب أو مسـافر فانه يتوجه مباشرة الى منزل العمدة او أى منزل فى القرية ليبيت ليلته .

***

وحدثنا أهالى ابريم عن معبد عبد الوهاب الجريدلى ٠٠

والجريدلى فنان داعبه حلم رؤية السد والتعبير عنه سنوات عديدة وعندما تمكن اخيرا من الذهاب الى هنـاك ٠٠ غـدر به النيل وابتلع جسده ولوحاته وريشته ٠

واحضر لنا رجل عجوز صورة كان الجريدلى قد رسمها له .. صورة حية نابضة كلها اصرار وتفاؤل .. وكانت معنا مجلة الكواكب وبها مقال عن الجريدلى للاستاذ محمود أمين العالم .. ومع المقال عدة صور له . وتخاطف الرجال المجلة ، وانطلقوا يتحدثون فى صوت واحد وهم يتمعنون فى الصور ٠٠ نعم ٠ هذه هى المدرسة ٠٠ والمأذنة ٠٠

ودار الضيوف .. وهذا هو عم محمود ... ومعزات الخالة صابحة .. وهذه ابريم التى أحبها عبد الوهاب وقضى بها آخر أيامه .

وقال لنا شاب صغير « لقد كنت معه دائما ، وكان يعمل طول اليوم فى الشمس الحارة يرسم ويسجل ويعيش معنا ، ولم تكن معه نقود كثيرة ولكنه لم يكن يحتاج الى شىء ، لقد فتحنا له بيوتنا وفتح لنا قلبه .. » .

وعرفنا منهم كيف قضى الجريدلى آخر أيامه .. فعندما بدأت الهجرة الكبرى لاهالى النوبة من قراهم القديمة الى أسوان ومنها الى قراهم الجديدة ، رافقهم الفنان وشاركهم كل شىء .. حزم الامتعة ، وترقيمها وارسالها الى البواخر .. وكان يركب البواخر النازلة الى اسوان ، ويرجع مع البواخر الصاعدة الى النوبة وهو يرسم طول الوقت بحماس من يعلم ان أيامه أصبحت معدودة .

وفى احدى هذه المرات ـ وفى طريقه الى أسوان ـ كان يجلس فوق السطح يرسم .. وحينما حان موعد الغداء .. ولم يظهر ليتناوله مع أصدقائه .. ذهب أحدهم يبحث عنه .. وفوق سطح المركب وجدوا أوراقه ولوحته مشدودة الى حامل كان يرسم فيها .. لوحة ناقصة لم تتم ، ولا أثر لعبد الوهاب .

وفشلت كل المحاولات فى العثور على جثته .. لقد غاص جسده فى نفس المكان الذى طالما حلم به ، وأصبح جزءا من جسم السد .

ومن الغريب ان عبد الوهاب كاد ان يموت ساعة تحويل النهر .

فقد كان يقف على حجر عال أمام قناة التحويل يسجل بآلة التصوير الحدث العظيم وفجأة اندفعت المياه الهادرة وحطمت كل شىء أمامها واطاحت بالحجر الذى كان يقف عليه الفنان .. ولكنه أنقذ فى آخر لحظة .

وعاش بضعة أشهر اخرى ليموت فى نفس النهر .

***

وكانت الحلقة التى تحيط بمنزل العمدة قد بدأت تتسع .. وفى جانب منها تجمعت النساء بلا خجل مفتعل .. وبدأ الشاعر النوبى يغنى أغنية ساذجة رائعة ..

تركنا ابريم البعيدة
أحسن بلد تنتج البلح
حيث غرق النخيل بواسطة مياه السد
واتينا الى ابريم الجديدة
لاجل عيون السد العالى
ولاجل عيون مصر وخاطر جمال
ذهب عبد الناصر الى روسيا
واحضر الرجال والآلات
وذهب معه المشير عبد الحكيم عامر
وأحضر السلاح
والروس الحمر الوجوه فى أسوان
فى الشمس مع أبنائنا يبنون السد العالى
وأبناؤنا معهم
والسلاح مع أبنائنا
يحاربون به الاستعمار واسرائيل والانجليز . !

نسمات سبتمبر

دخلت الناظرة الفصل .. ووقف التلاميذ احتراما .. وتراجعت المدرسة فى أدب وهى تتطلع الى الناظرة فى تساؤل .. وأجابت الناظرة عينيها فى أرجاء الفصل ثم توقفت عند أحد الاركان .

وتسمرت عيناها على عدد من التلاميذ فى أربع أدراج متتالية .. ثم تحركت عيناها وطافت بأرجاء الفصل الذى احتشد بالبنات .

وعادت عينا الناظرة الى الصبية فى الركن ثم تكلمت :

ـ انا مش قلت مفيش ولد يقعد جنب ولد ؟ لازم كل ولد يقعد جنب بنت .. مفيش ولاد ولا بنات يقعدوا وحدهم .

وبدأت جلبة فى الفصل .. الأولاد يأخذون كتبهم وحقائبهم ينتشرون فى أرجاء الفصل .. بحيث يضم كل درج ولدا وبنتا .

***

حدث هذا فى قلب مدينة أسوان العتيقة . ! وفى أولى مدارس البنات الثانوية بها ..!

***

وقالت السيدة زينب حموده .. ناظرة مدرسة اسوان الثانوية للبنات .. انها تريد أن تتحدث مع مجلس الفصل المنتخب .

ثلاث طالبات وطالب انتخبهم الفصل فى اليوم الاول للعام الدراسى الجديد .

وفى مكتب « الست الناظرة » دار حديث رائع اشترك فيه نواب الطلبة والمدرسات واثنان من الآباء عضوان فى مجلس الآباء .

وكانت الكلمات التى ترددت فى هذه المناقشة غريبة حقا ..

على الاقل بالنسبة الينا ، نحن القادمون من العاصمة ..!

قالت « الست الناظرة » فى ايمان عميق : أن سيادة الحيـــاة الديموقراطية داخل المدرسة هو الضمان الاساسى لسيادة الديموقراطية

فى البلاد كلها ·· فلا أحد يستطيع بعد ذلك أن يقف فى وجه الديموقراطية أو يتراجع عنها ·

***

ان التجربة التعليمية الجـديدة هى الخطوة الاولى فى مشروع التخطيط الاقليمى لأسوان الذى يعمل فيه الخبراء العرب بمركز تنمية الموارد البشرية .

وكانت المدرســـة الثـانوية للبنات هى التى اختيرت للتجربة الجديدة .. وتبدأ التجربة فى فصـول الصـف الاول من الاعـدادى والثانوى ، على أن يلحق بهذه الفصول عدد من البنين روعى فى اختيارهم قواعد معينة أهمها أن يكونوا من أبناء أسوان ·

والتجربة ليست تجربة اختلاط بين الجنسين وحسب ..

فهى تطبق مناهج جديدة للدراسة هى نفس المناهج القـديمة بعد ان قام الفنيون واساتذة التربية بحذف المكرر منها واختصـــار ساعات بعض الدروس الاسبوعية فى بعض المواد وتوفير الوقت للهدف الاساسى من التجربة وهو ربط التعليم بالبيئة .

فتحاول المناهج الجديدة اقامة صلة بين ما يحصل عليه التلميذ فى المدرسة من مواد وبين البيئة من حوله ، وذلك عن طريق ما يعرف « بالمحاور » ومحاور الانتاج هى السد العالى والمشروعات الصـــناعية والزراعة والســـياحة ، فمن خلال التعرف على السـد العـالى مثـلا يستخلص التلاميذ النظريات الهندسية واللوغاريتمات من خلال حساب مكعبات الاحجار والرمال ، ومسائل الحســـاب من العمليات المختلفة ، والانشاء والتربية الوطنية من التطور الســـياسى لمعركة الســـد .. وهكذا ·

وعند تدريس الرياضة مثلا لن تصبح المسألة هى مجرد تحفيظ « التلاميذ للقواعد الرياضية » وانما يتلقون ايضا ـ وبصورة تلقائية ـ قواعد التفكير المنظم ·

ويأخذ المنهاج الجديد بنظام التوجيه لاول مرة ، بحيث تدرس ميول كل تلميذ واتجاهاته أولا بأول حتى يســـهل توجيهه الى فرع الدراسة الصحيح الذى يصلح له ، وحتى يمكن فى المدى البعيد تلبية احتياجات المشروعات المختلفة فى المنطقة من القوى البشرية التى تحتاج اليها ، سواء فى الزراعة أو الصناعة أو الفندقة ·

ولا تقف التجربة الجديدة عند حدود الصغار ..

فهى تتضمن ايضا تعليم الكبار الذين تخلفوا من التعليم بين سن ١٠ و ٤٠ سنة ، والتلاميذ الذين تركوا الدراسة فى المرحلة الابتدائية، فتقام لهؤلاء مراكز تدريبهم على الاعمال التى تحتاج اليهـا مشروعات البيئة فى اسوان باختلاف انواعها .

وليس هذا كله الا مركزا واحدا من المراكز السـتة للتنمية فى اسوان ، التى ستكون نواة لمعهـد أو جامعة تكنولوجية فى المستقبل ، والمراكز الخمســة الاخرى تغطى مجالات الصناعة والزراعة والثروة المائية والسياحية .

***

ومدرسة البنات الثانوية التى تضم ٥٥٠ ولدا وبنتا .. ثلثهم أولاد .. ما زال اسمها مدرسة البنات ..

وقد احتج الاولاد على هذا الاسم أكثر من مرة ..!

بل حدث عند تحويل احد التلاميذ من هذه المدرسة الى مدرسة اخرى ، ان رفضت الاخيرة قبوله لانها لم تتصـور فـكرة وجوده فى مدرسة بنات ..!

انها أول مدرسة بنات فى القطر تقبل أولادا بها .. ! ،

والغريب أن فكرة الاختلاط لم تجد اعتراضا عند بعض العائلات الأسوانية الصميمة بل ان بعضها تناضل الآن من أجل الحـاق أولادها وبناتها بهذه المدرسة بالذات .

وقد تحدثنا الى أحد هؤلاء الآباء فى حجرة الناظرة واسمه السيد القرشى ، وهو عضو نشط فى مجلس الآباء ، وموظف قديم على المعاش، وله فى المدرسـة بنتان واحدة فى السـادسـة عشرة والثانية فى الثامنة عشرة .. ولم يكن يشـعر بأى غضـاضة من جلوسهما بجوار أولاد فى سنهما .

وقد شهدناهم جميعا فى الفناء .. الاولاد فى جانب والبنات فى جانب أخر .. وقالت لنا زينب حمودة : لا زالوا يهابون التجربة .. ولكنهم سيألفونها بعد قليل .

وعندما هبطنا الى الفناء عثرنا فى صالة جانبية على مائدة لتنس

الطاولة .. فى احد طرفيها فتاة سمراء جميلة .. وفى الطرف الآخر صبى .. وحولهما التف حشد من التلاميذ .. من الجنسين .

***

وفى الايام الاولى لنا بالمدينة ، عندما صدمتنا بحرارتها القائظة وجمودها وكآبتها .. كنا نتساءل ...

لقد مضت سنوات ست منذ بدأت اول ضربة فى الصخر .. ومنذ هدرت اول كراكة فى الجبل . وبعد سنوات قليلة ستهدأ هذه الضجة وتنسحب الآلات والرجال الى مكان آخر .. فهل ضاعت فرصة العمر من أسوان كى تتغير ؟!

وقد وجدنا الاجابة بعد قليل :

فالانسان يستغرق وقتا طويلا ليتغير .. ولكنه يتغير بالتأكيد ما دام وجه الارض المتحجر يلين وينبت المصانع والكهربا .

***

وفى ذلك المساء بعينه كنا نقوم بجولة أخيرة فى السوق العتيد ..

وجعلنا نتشمم الهواء فى لهفة .. فلاول مرة نتنفس فى الهواء رائحة الخريف النقية .. دون غبار او حرارة ..

وكانت المدينة مزدحمة .. اكثر من المعتاد ..

وفى كل مكان كانت جموع الناس من الجنسين تروح وتجىء ، تشترى وتتمشى على النيل ، تستنشق نسمات سبتمبر .

والفنادق التى اغلقت ابوابها طيلة فترة الصيف ، فتحتها ..

والكازينوهات التى كانت خالية تماما .. تمتلىء من جديد .. بالمدرسين والموظفين .. ورجال السد .

كانت الحياة تنبض بقوة اكثر ..

كأنما تحشد ـ بعد فترة راحة ولعلها كانت فترة تربص ـ كل قواها من جديد .. لتواصل السير .

فهرس

الموضـــوع	الصفحة
أصعب كتـاب فى العـــالم	٥
الســـــوق	٩
الطريق	١٧
معركة يومية وســؤال بلا اجـابة	٢٥
السد يلدى	٣٥
الاله القـــديم	٥٣
أبناء الشـــــمال	٦٧
مصـــابيح ناصر	٨٧
بطل الســد	٩٩
الصـــعود	١١١
نســمات سبتمبر	١٢٩

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

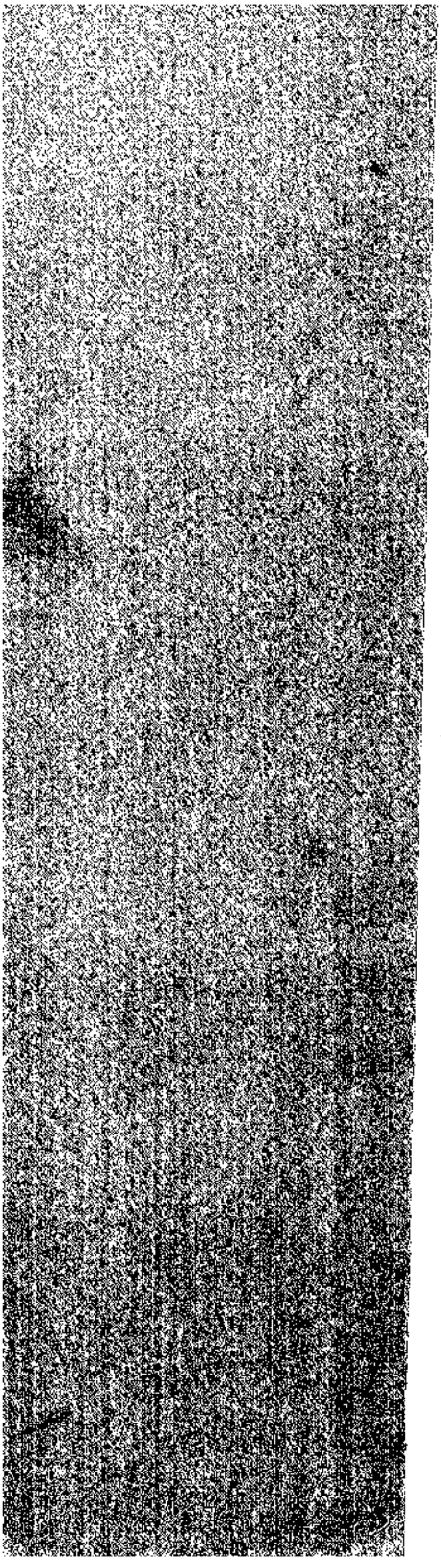

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

العدد ٢٠١
١٠ يناير سنة ١٩٦٧

الثمن ٣٠